

(// //)

. تلعب الثقافة دوراً رئيساً في تشكيل الهوية الوطنية وبلورة مسارات التنمية الاجتماعية والاقتصادية والمؤسسات التابعة لهما. ويقدر ما تعتمد هذه الثقافة على ثوابت أصيلة ومركزات جوهرية بقدر ما تمتلك القدرة على التوجه على مجتمعتها . والانفتاح وتمثُّل ثقافات الغير والتأثير فيها دون أن تفقد أياً من خصائصها . والثقافة الأصيلة ذات الأبعاد الإنسانية وحدها القادرة على إبداع الحضارة ودفع مجتمعتها في طريق النمو والتطور.

والثقافة في دول الخليج العربي - التي تستمد قيمها وأهدافها من القرآن الكريم . والسنة النبوية الشريفة ومن تراثٍ ثريٍّ من العادات والتقاليد وأنماط الإنتاج الاقتصادي - مَّرت عبر تطورها بمرحلتين . الأولى أطلقنا عليها مصطلح (ثقافة اللؤلؤ) إشارة إلى القاعدة الاقتصادية التي ارتكزت عليها والمتمثلة في ثمار البحر من اللؤلؤ والإسفننج والأسماك . والتي تميزت بالأصالة وتبني قضايا الأمتين العربية والإسلامية . وبالقدرة على الانفتاح على الثقافات الآسيوية والأفريقية . وقد أفرزت هذه الثقافة قيماً ومؤسسات اجتماعية مميزة ابتداءً بالأسرة والمدرسة والصحافة مروراً بالديوانيات والأندية وانتهاءً بالتعليم بحيث تركت بصماتها على كل التشكيلة الاجتماعية في الخليج .

أما المرحلة الثانية من صيرورة هذه الثقافة . فقد تميزت بظهور النفط كعامل اقتصادي حاسم وما صاحبه من ثورة في التنمية والتطور في مجالات الاقتصاد والمجتمع والتعليم والإعلام وثورة المعلوماتية والثورة التقنية المعقدة الحاملة للفكر الرأسمالي المنتج لها . ونمو السكان وزيادة عدد ساكني المدن واتساع ونمو تيارات الهجرة وتنوعها . الأمر الذي أدى إلى دخول ثقافات جديدة إلى منطقة الخليج تختلف كلياً عن الثقافة السابقة ثقافة اللؤلؤ.

فضل الأيوبي

إن الثقافة الحالية - ثقافة ما بعد ظهور النفط - المصاحبة لهذه الثورة المذهلة مدعوة وبشدة لقيادة مجتمعتها استناداً إلى تراثها الغني السابق ومركزاتها الجوهريّة السابقة بحيث تستطيع استيعاب قضايا العصر والتعاطي معها دون أن تفرض بأي من مركزاتها . لهذا لابد من ثقافة جديدة تقوم على الأصالة من جهة والمعاصرة من جهة أخرى دون المساس بالثوابت والخصائص الأصيلة للثقافة الخليجية كيما يتم إفران بنيات اجتماعية جديدة تسير هذا التطور الجديد.

إن كلاً من (ثقافة اللؤلؤ) ، وثقافة (ما بعد النفط) ، والثقافة الجديدة المطلوبة تشكل محاور هذا البحث .

يتضمن عنوان هذا البحث ثلاث قضايا متقابلة ومتداخلة في آن واحد :

- () :

تمتلك الثقافة من خلال عناصرها وخصائصها ومكوناتها ووظائفها أشكالاً مختلفة تختلف باختلاف البيئة الاجتماعية والاقتصادية التي أنتجتها . وفي الخليج نستطيع أن نميز الآن بين ثلاثة أنواع من الثقافة :

١- الثقافة الأصيلة والتي سادت ما قبل ظهور النفط .

٢- الثقافة التي هيمنت بعد ظهور النفط وهي ثقافة وافدة .

٣- الثقافة التوفيقية بين الثقافتين الأصيلة والوافدة .

إن كل ثقافة من هذه الثقافات سيكون لها خصوصيتها في التنمية الاجتماعية فأياً يمكن أن تكون الرافعة التي ستنهض بالمجتمع الخليجي ؟ .

-

ترتبط التنمية الاجتماعية ارتباطاً وثيقاً بالتنمية الاقتصادية والتنميتان

تربطهما علاقة جدلية بالثقافة . فهما نتاج لها ومنتجان لها أيضاً .

فالثقافة الخليجية التي كانت سائدة قبل ظهور النفط كانت تمتلك مثل هذه العلاقة مع

أنماط الإنتاج الاقتصادي (الصيد البحري - التجارة - الزراعة) وفي نفس الوقت أغنت هذه

دور الثقافة في التنمية الاجتماعية في الخليج العربي

الأنماط مضامين الثقافة الخليجية بحيث كونت الشخصية الوطنية بخصائصها الاجتماعية فأصبحت من الثوابت التي تميز سكان الخليج عن غيرهم من المجتمعات الأخرى المختلفة حتى العربية منها . لقد تركت ثقافة ما قبل النفط بصماتها على التشكيلة الاجتماعية (نظام القبيلة . والأسرة والمجموعات المهنية العاملة في الصيد، والتجارة . والزراعة . والرعي) وعلى عادات وتقاليد هذه التكوينات وعلى آدابها وفلكلورها الشعبي والبناء وكانت لها مؤسساتها في النصف الأول من القرن العشرين ممثلة بالأندية والجمعيات والصحافة ورجال الفكر ، وبعبارة أخرى أنتجت هذه الثقافة نظاما اقتصاديا . وبنية اجتماعية منسجمين مع بعضهما تمام الانسجام على الرغم من وجود فوارق طبقية بين التجار ومالكي الأراضي الزراعية والسفن من جهة وعامة الناس من جهة أخرى إلا أن هاتين الشريحتين كانتا تتعايشان بكل انسجام في إطار مجتمع واحد تهيمن عليه ثقافة واحدة من إنتاجه .

غير أن الثقافة التي سادت ما بعد ظهور النفط في منطقة الخليج هي ثقافة جديدة ضعيفة الصلة بتلك الثقافة التي طبعت السكان بطابعها في مرحلة ما قبل النفط . بل هي في مجملها ثقافة وافدة حملتها إلى الخليج التطورات الاقتصادية والاجتماعية التي أعقبت ظهور النفط والمتمثلة في دخول التقنيات الجديدة والخبراء العاملين بها إلى الخليج ذلك أن التكنولوجيا المستوردة تحمل معها خصائص الثقافة التي أنتجتها .

المجتمع الخليجي لم يسهم في إنتاج الثقافة الجديدة بل تلقاها وتقبلها ؛ لأنها كانت بالنسبة له تمثل الحدائة وهو لم يتخل عن ثقافته التي عجزت عن تجديد نفسها لمواكبة التطورات العالمية ، و لم تستطع طرح التقانة اللازمة لدخول العصر . لذلك دخلت في صراع حاد مع الثقافة الجديدة التي أخذت في مزاحمتها لتفكيكها والحلول مكانها والتي أخذت تترك آثارها على المجتمع الخليجي في نواح عديدة أهمها .

فضل الأيوبي

- ١- تراجع دور القبيلة السياسي والاجتماعي والاقتصادي .(على الرغم من بقاء بعض من عاداتها وتقاليدها) ؛ بسبب ظهور الدولة الحديثة التي أخذت على عاتقها المهمات التي كانت تقوم بها القبيلة .
 - ٢- النمو الحضري الناجم عن استخراج وتصنيع النفط واستدراج تيارات الهجرة بما تحمله من ثقافات مختلفة و ظهور المدن الكبرى والموانئ .
 - ٣- تفهقر الحرف والمهن التقليدية والتي كانت عماد الحياة الاقتصادية في المجتمع الخليجي .
 - ٤- احتقار العمل اليدوي وتدني تقدير العمل كقيمة كبرى في حياة المجتمع .
 - ٥- التوجه نحو الاستهلاك الشديد ؛ بسبب السيولة المالية التي وفرتها الدولة لأفراد المجتمع بدون أي عناء يذكر .
 - ٦- ظهور المدن كمنتج للثقافة الجديدة.
 - ٧- ظهور الاقنية الفضائية والأطباق التي تروج للثقافة الجديدة والتي أدت إلى تغيير الكثير من المثل والعادات والتقاليد . وتبني ثقافات غريبة عن المجتمع الخليجي تتعلق بالنظام الغذائي والمثل والقيم والملبس والبناء وتقليد كل ماهو غربي في شتى مجالات الحياة .
 - ٨- تغيير نظام الأسرة الكبيرة واستبداله بنظام الأسرة الصغيرة .
 - ٩- باستثناء الصناعات المتعلقة بالنفط سواء في المدخلات أو المخرجات لم تساعد الثقافة الجديدة على تشكيل بنى إنتاجية هامة بدليل ضعف مساهمات القطاع الخاص في بناء الاقتصاد الوطني لدول الخليج وفي تقديم فرص العمالة الضرورية للمجتمع الخليجي .
- إن الثقافة الأصيلة للمجتمع الخليجي إذا كانت لم تستطع الصمود وقيادة التطور الاجتماعي بسبب عدم قدرتها على تجديد نفسها وانقطاعها عن الحداثة فإنها لم تتراجع بشكل نهائي ولم تفسح المجال أمام الثقافة الوافدة للحلول محلها وذلك بسبب تأصل جذورها في نفوس الناس . لذلك نشهد ولادة ثقافة توفيقية من هاتين الثقافتين .

-

وتشتمل هذه القضية على ثلاث مسائل أساسية : شكل الثقافة السائدة والبنية الاقتصادية المهيمنة والتنمية الاجتماعية المطلوبة .

فأي الثقافات ستكون القادرة على قيادة تطور المجتمع الخليجي وتنميته : هل هي الثقافة الأصيلة ؟ أم الوافدة ؟ أم التوفيقية ؟

وإذا ما استطعنا تحديد شكل الثقافة القائدة فما هو شكل العلاقة التي يمكن أن تقوم بين هذه الثقافة والبنية الاقتصادية ؟ وبالتالي ماهي طبيعة المهام التي ستقوم بها الثقافة القائدة لإحداث التطور المنشود ؟

إن الإشكالية التي ولدتها القضايا الثلاث تتطلب رؤية شاملة قائمة على تحليل موضوعي للعناصر التي كونت هذه القضايا والتي لا يمكن معالجتها إلا في إطار عام يشملها جميعا لذلك : يهدف هذا البحث إلى تسليط الضوء على الثقافات بأشكالها الثلاث وتوضيح مهماتها في التنمية الاجتماعية ثم تبيان أي هذه الثقافات هي الأقدر على قيادة التنمية الاجتماعية المستقبلية في الخليج .

وللوصول إلى هذا الهدف لا بد من تحليل المحاور التالية :

: ويتناول بالتحليل دور الثقافة الأصيلة التي سادت ما قبل النفط وعملت على تكوين البنى الإنتاجية والاقتصادية وساهمت في التشكيل الاجتماعي للمجتمع الخليجي .

: ويعمل على دراسة الثقافة الجديدة والموسومة بالحدثة والتي هيمنت ما بعد ظهور النفط وعملت على تخليق القاعدة الاقتصادية وتكوين التشكيلة الاجتماعية الخليجية .

فضل الأيوبي

: ويهتم بتسليط الضوء على الثقافة القائدة والمعبرة عن القاعدة

الاقتصادية للمجتمع الخليجي والقادرة على تنمية هذا المجتمع وتطويره .

وقبل تحليل هذه المحاور الثلاثة لا بد من الدخول إلى البحث عبر مقدمة تشمل تحليلا

لمفهوم الثقافة وعناصرها وخصائصها ومكوناتها ووظائفها الخ . . وتحديد مفهوم التنمية

الاجتماعية . والانتهاء من البحث بخاتمة تلخص دور الثقافة في التنمية الاجتماعية عبر

الآفاق المستقبلية

-

إن مسألة الدخول في تحديد دور الثقافة في التنمية المستقبلية للمجتمع ليست من

الأمر السهلة . ذلك أنها تتميز بعمق كبير ، و تفرعات عديدة و تتطلب إلماما شاملا بكل

الخصائص و المميزات للقضايا المكونة لهذه الإشكالية . و و و وهي

موضوعات تثير جدلا على نطاق واسع سيما و أن العولمة قادرة على اختراق كل

الفضاءات الثقافية و التنموية و المستقبلية للعالم جميعا .

فا هي روح الأمة و جوهرها ، وهي العقلية التي فكرت بها الأمة فيما مضى

و اتخذت على أساسها مواقف من الحياة بشتى صورها و أشكالها ، و من الكون بكل

أبعاده ، و من الإنسان بماضيه و حاضره و مستقبله . هي التي نستشرف

بها آفاق مستقبلنا ، وهي على تحقيق تطلعاتنا ، وهي على تحصين الذات

و حفظ الخصوصيات ، و الحامية من الذوبان ، وهي المحرض على الدفاع عن النفس ، و

نبد الجمود ، و رفض الاضمحلال ، و الحاضنة على الانفتاح على روح العصر و التفاعل

الثقافي ندا لند بدون ضياع أو فقدان للهوية و للخصائص و المميزات .

لقد قدمت لنا عقيدتنا الإسلامية ثقافة صنعت حضارة لا زالت مصابيحها مضاءة

حتى اليوم ، حيث صاغت حضارات الإنسانية السابقة على هيئة عقد فريد و قدمته

دور الثقافة في التنمية الاجتماعية في الخليج العربي

للشبية ، و بنت عليه الأمم حضارة الإنسان المعاصرة . و لم تكن ثقافتنا منغلقة على نفسها ، أو بلا هوية أو جذور ، بل كانت عصاره فكر إنساني – أبدعته حضارات بلاد الرافدين ، ووادي النيل ، و بلاد الشام ، و الساحل السوري ، و الصينيون ، و الفرس ، و الإغريق ، و الرومان - نور الدنيا بأركانها ، و نقل الحضارة إلى شعوب الأرض قاطبة . و قدم ممثلاً بقواعد (الابتكار ، و التوضيح ، و التصحيح) ، و فلسفة القائمة على (التطور – و التعاون) ، (المعرفة بالإلهام) ، و رؤية (حول ضرورة التفكير العلمي و الاجتماعي) ، و آراء (في المنهج العلمي) .^(١)

و ثقافتنا نبع ثري لا ينضب ، إذ لم تجد الأمة سواه وقت الشدة تغرف منه كما تشاء لدرء مخاطر العدوان القادمة من الغرب ممثلة بالغزو الصليبي ، أو من الشرق بهجمات التتار و المغول أو حركات الاستعمار الحديثة . فأغدقت بعباءاتها من القواعد و المناهج و المفاهيم و الإطارات ما يدهش للحفاظ على الأمة و الأوطان و تأمين البقاء ، و طرد الغزاة . و اليوم و نحن في معركة شرسة لحفظ البقاء و للبناء و التقدم ، و مقاومة الذوبان و التفكك و التلاشي أمام الثقافات الوافدة ، أمام أخطار العولمة الهادفة إلى القضاء على الثقافات الوطنية و خلق فضاءات ثقافية ركيكة تتنكر لذاتها و تنحني أمام الثقافات الغازية ، ما أحوجنا إلى نفض الغبار عن الثقافات المعاصرة . ذلك أننا الآن بأمس الحاجة لها للدفاع عن ذاتنا أمام المخاطر القادمة ، و لبناء مجتمعاتنا و تنميتها . فهل نستطيع الوصول إلى ذلك ؟؟ .

للإجابة على هذا التساؤل لابد من تدارس بعض التعريفات ، و توضيح بعض الحدود التي ستساعدنا على تحليل محاور هذا البحث ، و الإجابة على هذا التساؤل .

دور الثقافة في التنمية الاجتماعية في الخليج العربي

ذلك الكل المركب من المعارف، والعقائد، والفن، والأخلاق، والقانون، و الأعراف، و كل ما اكتسبه الإنسان باعتباره عضواً في مجتمع ما^(٤)

و المنظمة العربية للتربية و الثقافة و العلوم تعرف الثقافة فتقول : الثقافة هي :
(الإنسان بوصفه فاعلاً منفعلاً . و تشتمل على كل ما أنتج البشر في الحياة من إنتاج مادي و غير مادي سواء أكان تراكم خبرات ، أم ممارسات فكرية ، أم تصورات عقائدية روحية ، أم تقليداً، من التقاليد أم صناعة من الصناعات . و هي الأساليب و أشكال القيم التي يبتكرها الإنسان ليكسب إنسانيته معناها الخاص ، و ينظم بها حياته الخاصة و الاجتماعية و الفكرية و الروحية و الجمالية .)^(٥)

أما اليونيسكو ، فقد عرف مندوبوها المجتمعون في مكسيكو في بيان لهم صدر في ٦ / ٨ / ١٩٨٢ الثقافة :

(على أنها جميع السمات الروحية و المادية و الفكرية و العاطفية التي تميز مجتمعا بعينه ، أو فئة اجتماعية بعينها ، و هي تشمل الفنون و الآداب و طرائق الحياة ، كما تشمل الحقوق الأساسية للإنسان ، و نظم القيم و التقاليد و المعتقدات .)^(٦)

()

(علاقة الإنسان بمحيطه الطبيعي و ما تتضمنه هذه العلاقة من فعل و تفاعل و إبداع مادي أو فكري أو جمالي يشكل في مجموعه نمطا متميزا لمجتمع ما أو لأمة ما في

() ،

()

()

()

() ،

فضل الأيوبي

سلوكها البشري ، و فكرها الاجتماعي ، و نمط العيش المشترك ، ووسائل الحياة السائدة و أدواتها) .

و هو بذلك يتبنى المفهوم الخاص بالثقافة و الذي ورد في مشروع التقرير النهائي للجنة الخطة الشاملة للثقافة العربية في تونس .

بعد استعراضنا لهذا العدد من التعريفات نكون قد قاربنا المفهوم العام للثقافة ، و إن كان هناك أكثر من ١٥٠ تعريفا لهذا المفهوم . و سنحاول الوصول إلى مفهوم نهائي من خلال التعريفات التي استعرضناها يكون غرضه خدمة أهداف هذا البحث :

(الثقافة هي : القيم الدينية و الروحية و الأخلاقية ، و العادات و التقاليد ، و النظم الاجتماعية ، و المعارف العلمية و الأدبية ، و الإبداعات بصورها المختلفة المادية و المعنوية ، هي ذاكرة الأمة ، و هي الوسيلة المنظمة لحياة المجتمعات الخاصة و نسج العلاقات مع المجتمعات الأخرى ، و هي أداة حفظ الذات و وسيلة التعبير عن النفس ، و وسيلة التجديد و التواصل ، و الهادية إلى التطور و التقدم ، و هي وسيلة الإلهام و الإبداع و التفكير و التمايز)

و وفقا لهذا التعريف فإن تحليل مفهوم الثقافة يشتمل على عدة أبعاد :

لأنها تعمل على بلورة شخصية الأمة من خلال تكوين نسيج وحدتها ، و شد أواصر العلاقات بين أفرادها و خلق أهداف مشتركة لهم ، و مصير واحد . و لها لأنها تمايز بخصائصها المختلفة مجموعات سكانية عن غيرها بما تملكه هذه المجموعات من تراث مشترك و قيم سائدة و أعراف و تقاليد ، و حضارة مميزة . و هي بهذا المعنى تشكل هوية الأمة ، و أدواتها لمواجهة التحديات المتمثلة بالعدوان و التجزئة و التخلف و التبعية . و لها يتمثل في تلاقحها مع الثقافات الأخرى ، و إبداعاتها

دور الثقافة في التنمية الاجتماعية في الخليج العربي

الكبرى في مجالات العلوم، والآداب، والفنون، والمثل، والقيم، والتقنيات، و وضعها في خدمة الإنسانية. كثمرة للالتقاء مع ثقافات الغير وسيلة للعيش المشترك. وهكذا، وبعد أن عرفنا المعنوية و المادية، وبيننا من حيث التكوين، والتراكم، والشمول، والتكامل، و البعد الإنساني والتغير والتطور ودور الإنسان في بنائها. وأشرنا باختصار إلى الوظائف المختلفة للثقافة والمتمثلة في: تنظيم المجتمع، وحل تناقضاته، وبناء شخصيته المستقلة. ننتقل لتحديد مفهوم التنمية الاجتماعية.

(

هي عملية بناء وتكوين الفرد، وتحويله من مجرد كائن حي إلى عضو بناء و فاعل يشكل جزءاً من جماعة تفرض عليه واجبات، وتمنحه حقوقاً، وتلزمه بقوانينها ويتابع تطوره من خلال ازدهارها وتطورها. والتنمية الاجتماعية هي تحريض على الحراك الاجتماعي، وتنمية للشرائح والطبقات المكونة للمجتمع. وهي تركز على البناء الواسع للطبقة الوسطى مصدر الثقافة والعلم والتحديث ومصدر السلطة وقائدة التطور والساخرة على صيرورة المجتمع؛ لأنها صمام الأمان في أي مجتمع من المجتمعات، وذلك أن أي خلل في مكونات هذه الطبقة سواء بانسلاخ جزء منها وصعوده إلى الطبقة الأعلى، أو هبوطه إلى الطبقة الأدنى، سوف يؤدي إلى تأزم في مسار المجتمع، واحتقان في تكوينه، وتهديد لوحده الوطنية واضطراب في نموه وتطوره، و خلل في توزيع ثروته الوطنية. والتنمية الاجتماعية التي تهدف إلى الارتقاء بكل شرائح وطبقات المجتمع، و تأمين التطور الدائم لها من خلال ما تقدمه هذه التنمية من مؤسسات وبنى تحصر عملياً على إدماج جهود كافة أفراد المجتمع فيها. وبقدر ما يتمتع أفراد المجتمع بالوعي لحقوقهم و

فضل الأيوبي

واجباتهم و دورهم في بناء مجتمعهم . و بقدر مساحة المشاركة المتاحة لهم في إدارة شؤونهم السياسية و الاقتصادية و الاجتماعية من خلال المفهومين الأساسيين لحقوق الإنسان المتمثلين بالحرية و المساواة فإن المجتمع يضمن تماسكه و تطوره .

لكن التنمية الاجتماعية ليست سوى صدى للتنمية الاقتصادية ، بل هي وجهها الآخر . و ذلك أن ارتفاع مستويات الادخار و التراكم ، و تحسن المستوى المعيشي و الحياتي للفرد لا يمكن أن تتم في ظل زيادات سكانية متوالية و غير منتظمة ، و تتعذر في ظل مديونية تلتهم كل زيادة اقتصادية ، و تستحيل في ظل تبعية سياسية و اقتصادية تلقي بظلالها على الاستقلال الوطني . و التنمية الاجتماعية لا يمكن لها أن تأخذ أبعادها الحقيقية في مجتمع يتفاوت فيه توزيع الثروة و تهيمن فيه طبقة أو شريحة منه على المسار الاقتصادي بينما تهتمش الطبقات و الشرائح الأخرى .

إن التمتين الاجتماعية و الاقتصادية محكوم عليهما بالتلازم ، و العلاقة بينهما جدلية إذ لا يمكن لإحدهما أن تتم بمعزل عن الأخرى . و التمتين لا يمكن أن تحققا أهدافهما إلا في ظل الشروط التالية :

١- حرية التفكير و المشاركة و المساءلة ، و النقد البناء الذي يحدد و يحارب عيوب الأمة و يرسم لها الطريق الصحيح للتطور و يجدد حياتها .

٢- ثقافة جديدة تقوم على التحديث (الفكري و المادي) و التنوير ، و التجديد الفكري و إبراز دور العقل .

٣- التربية الحديثة و مناهج التعليم المناسبة للتنميتين الاقتصادية و الاجتماعية .

٤- التنمية المتوازنة . و القضاء على الثنائية السلبية (مدينة - ريف) ، و تنظيم تيارات الهجرة إلى المدن و ذلك عبر توفير الخدمات في الأرياف . التنمية التي تعكس نجاحاتها على كافة الشرائح الاجتماعية و تلبي الاحتياجات الوطنية ، و تفك قيود تبعية البلاد للخارج . بعد أن قاربنا من خلال التعريفات و الحدود الأولية بين قضايا البحث و المتمثلة في دور الثقافة في التنمية الاجتماعية . ننتقل إلى المحور الأول من محاور

دور الثقافة في التنمية الاجتماعية في الخليج العربي

البحث و المتعلق بتحليل دور الثقافة الأصيلة و التي سادت ما قبل ظهور النفط و عملت على تكوين البنى الإنتاجية و الاقتصادية و ساهمت في تشكيل المجتمع الخليجي .

()
()

:

لن نعود في هذا المحور كثيرا إلى الوراء ، بل سوف نلقي نظرة عاجلة على العقود الأولى من بداية هذا القرن ، و على المكونات التي ولدت ثقافة الخليج .

-

لقد لعبت البيئة الطبيعية بسبب فقرها بالموارد كالأمطار، و الترب الزراعية، و المياه الجوفية دورا حاسما في رسم معالم الثقافة الخليجية من خلال تحديد معالم النشاط البشري و الاقتصادي للسكان فتركت بصماتها واضحة على كل أوجه الثقافة الشعبية الخليجية . و كانت بامتداداتها اللامتناهية ، الغامضة المليئة بالأسرار و الأخطار و المفاجآت . هما مصدرا الزرق الوحيدان للسكان . و على الرغم من فقر و قلة مردود هذين المصدرين فإنهما وفرا القناعة و الرضى لدى هؤلاء السكان الذين اجترحوا الحياة من قلب هذين الصعبين . و بقدر ما كان انتزاع الرزق صعبا و مخفوبا بالمخاطر ، كانت الشخصية الخليجية قوية و صلبة و عنيدة و بقدر ما كان التحدي الذي تفرضه البيئة الطبيعية كبيرا كانت الاستجابة لهذا التحدي أقوى . مما أدى إلى البقاء و استمرارية الحياة رغم صعوبتها و قسوتها . و لعلنا نجد في الأغاني الشعبية و الأهازيج صورا صادقة للمعاناة الصعبة التي كان يكابدها الإنسان الخليجي ، و رصدنا هائلا للأحزان التي كانت

فضل الأيوبي

تكوي قلوب لماخري عباب الخليج ، و تلوع أولئك القابعين و المنتظرين بيأس و رجاء على ضفافه .

-

امتحن قسم من السكان حرفة الرعي و تربية الماشية و خاصة الإبل فاتسمت حياتهم بالتنقل بين الواحات و في بطون الأودية بحثا عن الكلاً و الماء . أو القيام بزراعات مؤقتة محدودة إلى جانب أشجار النخيل ، و القسم الآخر عمل في استخراج اللؤلؤ ، و الإسفنج و صيد الأسماك . هذان المصدران للرزق لم يسمحا بتكوين فائض اقتصادي ذي شأن . أو رواج تجاري إنما سمحا للسكان فقط بالمصارعة للبقاء على قيد الحياة . اقتصاد الكفاف هذا لف بردائه الخليج برمته . لذلك ليس غريبا أن نشهد غياب المدن المهمة على طول سواحل الخليج . إنما انتشرت على سواحلها و بين سبخة تجمعات سكانية هزيلة ذات بيوت متواضعة و أحياء و أزقة أكثر تواضعا . و كانت تقوم في هذه التجمعات صناعة القوارب و السفن الخاصة بالصيد و كل ما يلزم لهذه المهنة من شباك و حبال و قفف و سلال و ما شابه .

لكن ركوب البحار ، و إتقان مهنة الملاحة سمحا للمغامرين بالوصول إلى سواحل أفريقيا الشرقية غربا و لسواحل الهند و إيران شرقا . حيث قاموا بالتجارة بين الخليج و هذه المناطق . و لعل أهم ما كانوا يحملونه من بلادهم اللؤلؤ الذي كانوا يشترونه من (الطواويز) الذين كانوا يحصلون عليه من الغواصين بأثمان بخسة أو مقابل بعض المواد الغذائية^(أ) . و يبيعونه في بومباي أو شرق أفريقيا بأثمان باهظة . لذلك كان تجار المجتمع الخليجي شريحة مميزة بثرائها و ذات مكانة اجتماعية مرموقة ، و ذات أهمية في الشأن الثقافي .

()

)

()

دور الثقافة في التنمية الاجتماعية في الخليج العربي

كان النشاط التجاري يمتد إلى دول الساحل الأفريقي الشرقي والهند وإيران . ولم يكتف هؤلاء التجار بالتجارة باللؤلؤ و جلب المواد الغذائية والأقمشة و البخور و العطور إلى بلادهم بل نقلوا معهم الكثير من عادات و تقاليد و ثقافات البلدان التي كانوا يتاجرون معها . و التي ظهرت في أطعمة و ملابس و فنون و عادات سكان الخليج . و قد عزز هذا التأثير الثقافي حركة التجار الهنود و الإيرانيين و الأفارقة إلى إمارات الخليج و الإقامة فيها لفترات طويلة لتنظيم عمليات التبادل التجاري^(٩) .

-

لم يكن الخليج بما يتمتع به من موقع إستراتيجي هام بعيدا عن الأطماع الخارجية و خاصة بريطانيا التي كانت تهدف دائما إلى تأمين الطريق إلى الهند الدرّة الثمينة في التاج البريطاني . و حمايته من أطماع الدول الاستعمارية الأخرى المنافسة . لذلك عمدت إلى تكريس وجودها ابتداء من عدن و انتهاء بالكويت عن طريق المعاهدات و تقديم المساعدات .

و لعل أبرز ما حفل به النصف الثاني من القرن التاسع عشر هو وصول البعثات التبشيرية إلى الخليج . حيث أرادت الولايات المتحدة أن توجد لنفسها موطئ قدم في هذه المنطقة . فأرسلت العديد من هذه البعثات مثل^(١٠) : الإرسالية البروتستانتية ١٨٨١ ، إرسالية فرانش ١٨٩١ ، إرسالية جيمس كانتيت و صموئيل زويمر ١٨٨٨ . و كانت البحرين و البصرة و مسقط المراكز الأولى لهذه الإرساليات . كان هدف هذه البعثات نشر الديانة المسيحية و ذلك عن طريق تقديم الخدمات الطبية و التعليمية و التثقيفية و الترويج للفكر الغربي و الثقافة

()

()

فضل الأيوبي

الأجنبية عموماً. وإذا كانت هذه الإرساليات التبشيرية قد نجحت في نشر التعليم و الثقافة و العناية الطبية إلى حد ما فإنها فشلت في تحويل السكان عن ديانتهم الإسلامية .

()

ظاهرة أخرى تسترعي الانتباه و تتمثل بالتأثر بالنشاطات الفكرية و السياسية للمفكرين العرب في بلاد الشام و مصر و العراق و شمال أفريقيا . ففي الوقت الذي كان الخليج فيه منسيا و منغلقا على نفسه بسبب ظروفه الصعبة و القاسية كان النشاط الفكري و الثقافي في المناطق العربية الأخرى منطلقا بقوة و حماس و ذلك بتأثير الاحتكاك بالمجتمعات الرأسمالية مثل : الحملة الفرنسية على مصر ، و نشاط البعثات التبشيرية في لبنان و سورية و مصر ، و البعثات إلى أوروبا (الشيخ رفاعة الطهطاوي و رفاقه) ، و الاحتلال الانجليزي لمصر ، و تبلور حركة يقظة إصلاحية هامة (الكواكبي ، الأفغاني ، عبده ، النديم) و تبلور جمعيات و أنندية عربية للتخلص من الاستبداد التركي . و ولادة العديد من الصحف الداعية إلى التحرر من التبعية و العبودية و الاستعمار و الحاضرة على العلم و الثقافة و التنوير .

غير أن الخليج لم يبق رهين ظروفه الصعبة ، بل فتح أبوابه على مصراعيها متلقفا فرصة توجه بعض المفكرين العرب نحوه ، و وصول الصحافة العربية إلى أسواقه

() ()

() () نتيجة للندوات و المحاضرات و الاتصالات برجالات الفكر العرب ، و وصول الصحافة العربية سرا و علانية ، نشأت

()

()

دور الثقافة في التنمية الاجتماعية في الخليج العربي

شرائح خليجية مثقفة واعية لعمقها الديني والقومي ، وارتبطت بشدة بالأحداث السياسية و النضالات الشعبية في كافة الأقطار العربية ضد احتلالات الإنجليز و الفرنسيين و الصهاينة في فلسطين . و بلغ الشعور الوطني و القومي في الخليج أوجه إبان ثورة عام ١٩١٩م في مصر ، و ثورة المطارة في العراق ١٩٢٠م و ذلك حين ارتفعت المطالب الشعبية في كل من الكويت و البحرين منددة بالاحتلال الإنجليزي و تصرفاته في البلاد العربية .

و لقد لعب المفكرون العرب آنذاك دورا محوريا في الإحياء الثقافي لمنطقة الخليج و الجزيرة العربية من خلال الزيارات ، و المنتديات ، و المحاضرات ، و المجالس ، و الديوانيات التي كانوا يشاركون بها في الخليج أو من خلال الصحافة التي كانوا يكتبون بها أمثال : مصطفى صادق الرافعي و عباس محمود العقاد ، و طه حسين ، و أحمد أمين ، و زكي مبارك ، و محمد رشيد رضا ، و حافظ وهبة ، و محب الدين الخطيب ، و أمين الريحاني ، و عبد العزيز الثعالبي ، و محمد البشير الإبراهيمي ، و محمد أمين الشنقيطي ، و يوسف ياسين ، و ناجي الأصيل ، و عبد الله الدمولوجي ، و سليمان الباروني ، و جمال الدين الأفغاني^(١٣) .

كما كان للعمل التجاري^(١٤) أثره في تعزيز التحديث الفكري و التنوير العقلي لسكان الخليج من خلال الأسر الخليجية التي كانت تقيم في الخارج خاصة الهند حيث تلقى أبناؤها التعليم الحديث و أتقنوا اللغات الأجنبية و اطلعوا على أفكار و ثقافات جديدة و حملوا زادهم الثقافي الجديد إلى بلادهم ليسهم في تعزيز النهضة الفكرية ، و التخلص من الأوهام و الخرافات السائدة و الجهل المتفشى بين الناس . أما الكويتيون و

()

()

فضل الأيوبي

البحرانيون الذين زاروا سورية و لبنان ومصر ، فقد تأثروا أشد التأثر بما شاهدوه من نهضة علمية و تطور اجتماعي و انتشار التعليم ، و محاربة الجهل ، و حاولوا نقل مشاهداتهم إلى بلدانهم و تطوير مجتمعاتهم . فبدأت تظهر كتابات خليجية واعية تدعو لمحاربة الاستعمار و مقاومة الجهل و الفقر والدعوة إلى تحسين الأوضاع السياسية و الاقتصادية و الاجتماعية و الثقافية في الخليج .

:

عكست ظروف البيئة الطبيعية الصعبة آثارها على العلاقات الاجتماعية و التكوين الاجتماعي لسكان الخليج . فاضطرار الناس للتنقل بحثا عن الحياة في الصحراء و البحر لم يسمح لهم بالاستقرار و التطور السريع . كان تأمين الرزق هو الشاغل الأول للإنسان الخليجي . هذا الوضع أفرز ضعفا ملحوظا في الوعيين السياسي و الثقافي . فسادت الأمية و الجهل و نفشى المرض . و انتشرت الخرافات و غاب الوعي .

كانت القبيلة هي الإطار الرسمي الذي ينتمي إليه السكان في الخليج . و القبيلة في ظل نظام البداوة تنظيم بديع يسير شؤون الناس الاجتماعية من زواج و طلاق و حل خلافات . و يرتب العلاقات داخل القبيلة و خارجها و يضمن الأمن الاقتصادي للأفراد . و القبيلة مسؤولة عن حماية حقوق أفرادها في المراعي ، و موارد المياه و غيرها . لذلك كان ولاء الأفراد و ما زال لقبائلهم شديدا جدا ، و احترامهم للأعراف و التقاليد السائدة في هذه القبائل أمر واجب .

يدير القبيلة عادة شيخ يتسم بالحكمة و الشجاعة و الكرم و سداد الرأي ، و أوامره مطاعة بلا تردد أو مناقشة و هو الذي يتصرف بأمالك و عائدات القبيلة الاقتصادية . يساعده في إدارته مجلس من أفخاذ القبيلة و بعض الأفراد ذوي السمعة الحسنة يتصف أعضاءه بالوجاهة و

دور الثقافة في التنمية الاجتماعية في الخليج العربي

الثناء والاحترام وهم يصادقون و بعد المناقشة على قرارات رئيس القبيلة الذي يستند في حكمه في أغلب الأحيان على القرآن و السنة و العادات و الأعراف و التقاليد .

هذا هو الهيكل (القبيلة) الذي كان يجمع سكان الخليج و يضمن أمنهم و سلامتهم و حياتهم و استمراريتهم . لكن كل إمارة من إمارات الخليج كانت تتكون من هيئات و شرائح و فئات اجتماعية تشكل بنية المجتمع في الإمارة و تتمثل على النحو التالي^(١٥) :

١ - الأسرة الحاكمة

٢ - شرائح كبار التجار و مالكي رؤوس الأموال و وسائل الإنتاج ، و زعماء القبائل ، و السادة العلماء ، و أصحاب الأملاك و العقارات .

٣ - عامة الناس : مثل المزارعين ، و الصيادين ، و الغواصين ، و البدو ، و الحرفيين .

٤ - المرأة و دورها المميز على المستويين الاجتماعي و الإقتصادي بالنسبة للأسرة .

من خلال الفقرتين السابقتين و الخاصتين بالعوامل المكونة لثقافة اللؤلؤ ، و التكوين الاجتماعي لسكان الخليج وقفنا على العوامل و الظروف التي كونت هذه الثقافة ، و تعرفنا على البيئة الاجتماعية التي احتضنت في رحمها المؤسسات و البنى الثقافية التي ستنتج عنها ، و التي سنستعرضها في الفقرة التالية .

نظرا لتنامي مظاهر اليقظة العربية في بلاد الشام و العراق و مصر و شمال أفريقيا بسبب ظهور العديد من حركات التجديد الإصلاحية ، و الجمعيات التي كانت تضم نجبا من المثقفين العرب الذين اطلعوا على الأفكار الحديثة و حياة الشعوب المتطورة ، و الصحافة التي كانت تندد بالاضطهاد و الاحتلال ، و تحسين الحياة الاجتماعية و الثقافية و

فضل الأيوبي

الاقتصادية للسكان العرب . فقد وجدت مظاهر اليقظة هذه صدى لها في الخليج حيث تلقفها الشباب الخليجي و تحمس لها و تبناها كأسلوب عمل لتطوير حياة السكان ، وكمشاركة لإخوانه العرب في مختلف ديارهم. و بحكم العادات القبلية ، وفرت المضافات أمكنة مناسبة للمناقشات و تبادل الرأي و استقبال الضيوف . فكانت وسيلة هامة و أساسية لنشر الوعي . و سنستعرض الآن أهم البنات التي قامت عليها ثقافة اللؤلؤ .

-

لعبت هذه الديوانيات دورا هاما جدا و ما زالت في نشر الوعي و بلورة الأفكار السياسية ، و تفجير طاقات العمل ليس لدى النخب المثقفة فقط بل لدى عامة الناس . ذلك أن هذه الديوانيات بحكم انتشارها في الأحياء ، و استقبالها الدائم للضيوف كانت وسيلة رائعة لمناقشة الأوضاع العامة و الظروف السياسية المحلية و العربية و الدولية ، و مكانا رحبا لاستقبال المفكرين العرب و الإسلاميين و كبار الشخصيات العامة و تطرح كل جديد . لقد سمحت هذه الديوانيات سمحت بإنضاج مواقف و آراء متباينة تجاه كل القضايا التي كانت تعرض للنقاش . مما أدى إلى ظهور بنات فكرية و اجتماعية .

-

نظرا لازدياد الشرائح المثقفة و النخب الاجتماعية ، و استنادا إلى زيادة الوعي و تعاظم القضايا المطروحة على مستوى السلطة و التنمية الاقتصادية و الاجتماعية . لم تعد الديوانيات قادرة على جمع المتناقضات و تغذية الوعي السياسي و الثقافي . فبدت الحاجة ضرورية لظهور مؤسسات جديدة . و قد تمثلت هذه المؤسسات بالأندية و الجمعيات مثل^(١٦) :

م و أسسها فرحان بن فهد الخالد الخضير .

(

()

دور الثقافة في التنمية الاجتماعية في الخليج العربي

(م : و ضم أدباء مثل : محمد صالح يوسف ، ناصر الخيري محمد العريفي و خليل المؤيد و محمد علي التاجر و علي إبراهيم كانوا و سعد الشمالان .

النادي الأدبي في المحرق - ١٩١٩ : و ضم : عبد الله الزايد ، و سلمان التاجر ، أحمد العمران قاسم الشيراوي و قد ترأسه الشيخ محمد بن عبد الله بن عيسى آل خليفة و الشيخ محمد بن عيسى آل خليفة . و قد استقبل هذا النادي شخصيات هامة مثل : حافظ وهبة ، محمد الفراتي ، أحمد شوقي ، أمين الريحاني .

النادي الأدبي في الكويت - ١٩٢٤ : و مقره ديوان محمد صالح الجوعان . و ضم خالد سليمان و يوسف القناعي ، هاشم الرفاعي ، صقر الشبيب و خالد العدساني ، و نصف يوسف النصف ، و عبد الحميد الصانع و محمد أحمد الغانم و خالد الفرج و حجي قاسم حجي ، و مساعد عبدالله الرفاعي و محمد خالد المشاري و سليمان العدساني و محمد العتيبي و عمر السيد خلف عبد القادر سيف محمد و أحمد خالد المشاري و محمد البراك .

أما رئيس النادي فكان الشيخ عبد الله الجابر الصباح و قد تأثر النادي بالأفكار السياسية لمصطفى كامل ، و عدلي يكن ، و ثروت باشا ، و سعد زغلول . كما أثرت الصحف المصرية على اتجاهات النادي السياسية وأهم هذه الصحف : الأهرام ، و البلاغ ، و المقطم ، و الجهاد المصري و الدستور و الكشكول و الهلال و المنار و اللطائف و المصور و السياسة الأسبوعية .

() - : و هو عبارة عن تجمع للنخبة الاجتماعية الثرية من التجار و الملاك و أصحاب العقارات .

فضل الأيوبي

() - - : وهي عبارة عن تجمع ضم شباب الحجاز المثقف الذي تأثر بأدب المهجر. وقد ضمت هذه الجمعية : أحمد السباعي ، عزيز ضياء ، حسين سرحان ، حمزة أضلني ، محمد سعيد العامودي ، عبدالله فدا ، و عبد القدوس الأنصاري وغيرهم .
() () -) . أنشئت هذه الأندية خدمة لأغراض

ثقافية و اجتماعية

(()) (-) . ورياضية . و قد ساهم في هذه الأندية شخصيات شابة

(()) (-) . أمثال : عبد الرحمن المعاودة و عبد العزيز الشمالان و راشد الزياني و عيسى الحاوي و محمد الحسن عبد الرحمن المؤيد و خليفة القصيبي و أحمد و إبراهيم كانو ، عبدالله المهزع و أحمد الجابر و عبد الرحمن العلوي و سلطان سيف و عبد الرحمن التقي و حسين علي أبل ، و علي عبدالله سيار و محمد عبد الله شمس ، و مبارك راشد الخاطر و محمود جعفر و حسن جواد الجشي و حمد صقور و علي التاجر و غيرهم .

() - - م : أسسه محمد دويغر و أبرز أعضائه : إبراهيم مقله و سعد يوسف و خليفة محمد بوشليبي و قاسم محمد مراد و محمد خليفة المعاودة ، و ميرزا العريض و ناظم العصفور و غيرهم من المدرسين و الطلاب و العمال و الموظفين و بعض التجار.

كانت هذه الأندية التي مثلت القوى الاجتماعية الخليجية النواة الأولى لنشر الوعي السياسي و الثقافي بين شباب الخليج ، فتفتح الشعور القومي و انتصر هؤلاء الشباب للقضية الفلسطينية ، و كرهوا الانتداب و الاحتلال و أخذوا يستعدون للمناهضة . و لما

دور الثقافة في التنمية الاجتماعية في الخليج العربي

بدأت نذر الحرب العالمية الثانية أغلقت بريطانيا هذه الأندية لإحساسها بأنها بؤرة تهدد مصالحها في المنطقة . و على الرغم من قصر الفترة التي عاشتها هذه الأندية فإنها عمقت الوعي السياسي و الفكري وأصبحت عاملا أساسيا في الخليج و شبه الجزيرة العربية لتطوير الثقافة قبل اكتشاف النفط .

-

عرفت منطقة الحجاز في شبه الجزيرة العربية الدخول المبكر للطباعة منذ أواخر القرن التاسع عشر . فدخلت المطبعة الرسمية إلى مكة المكرمة ١٨٨٣م^(١٧) ، ثم مطبعة الترقى الماجدية في مكة أيضا . تلتها المطبعة العلمية في المدينة المنورة ١٩١٠م ثم مطبعة الحجاز ١٩١٦ . و تطورت الطباعة في المدينة المنورة فقامت ثلاث مطابع في آن واحد هي سنة ١٩٣٦م^(١٨) هي : مطابع أم القرى ، و الفتح ، و الشركة العربية .

وفي البحرين أنشئت المطبعة الحجرية سنة ١٩٣٤ م ، و في عام ١٩٣٩م أقام عبد الله الزائد مطبعة البحرين الحديثة . و على الرغم من وجود هذه المطابع فإنها لم تستطع تلبية احتياجات المجتمع الخليجي و مجتمع شبه الجزيرة العربية للثقافة و العلوم . و الاطلاع على أحوال العالم . لذلك ظل الخليجيون يعتمدون على الطباعة في القاهرة و بيروت و دمشق حتى الحرب العالمية الثانية . و لم تستطع هذه المطابع تأمين صدور العدد الكافي من الصحف فبقيت صحافة مصر و العراق و بلاد الشام تحمل إلى الخليج أبناء العالم و التطورات الحديثة في كافة المجالات ، و أبناء نضالات الشعوب العربية .

لقد أذن دخول المطابع إلى الخليج و الجزيرة العربية بظهور صحافة محلية لعبت دورا في تنوير الرأي العام و لبت احتياجات المجتمع في هاتين المنطقتين فظهرت صحف عديدة

()

()

فضل الأيوبي

ساهمت في التكوين الفكري و الثقافي المحلي و عاجلت قضايا المجتمع ، و حملت آراء النخبة ، و بلورت رأيا عاما من كافة قضايا العصر . و تمثلت هذه الصحف^(١٩) ب : جريدة الحجاز (١٩٠٨ م) ، الرقيب (١٩٠٩ م) ، الإصلاح الحجازي (١٩٠٩ م) ، المدينة المنورة (١٩٠٩ م) ، الحجاز (١٩٠٩ م) ، شمس الحقيقة (١٩١٦ م) ، القبلة (١٩١٦ م) ، الفلاح (١٩١٩ م) بريد الحجاز (١٩٢٤ م) ، المعري (١٩٢٠ م) ، أم القرى (١٩٢٤ م) ، الإصلاح (١٩٢٨ م) ، الحرم (١٩٣٠ م) ، صوت الحجاز (١٩٣٢ م) ، المنهل (١٩٢٧ م) ، النداء الإسلامي (١٩٣٧ م) .

و في الكويت صدرت مجلة الكويت سنة (١٩٢٨ م) لصاحبها عبد العزيز الرشيد .

أما في البحرين فظهرت صحيفة البحرين (١٩٣٩ م) لصاحبها عبد الله الزائد .

لقد كان هم هذه الصحافة الدعوة إلى إصلاح التعليم و تعميمه ، و نشر الثقافة ، و محاربة الأمية و الجهل و التخلف ، و تشديد أواصر القربى العربية و الإسلامية . و تحديث المجتمعات الخليجية و اللحاق بركب الأمم و الشعوب المتطورة . غير أن الصحافة و الأندية و الديوانيات لم تكن وحدها كافية لتحقيق مثل هذه الأهداف السامية . و لن يكتمل الموضوع إلا باستعراض نبذة عن نظم التعليم السائدة آنذاك كبنية من بنيات ثقافة اللؤلؤ .

-

نشأ التعليم الحديث في منطقة الخليج في العشرينيات من هذا القرن و كان ضرورة استدعتها احتياجات رجال الأعمال و التجار لكتاب و موظفين يديرون أعمالهم ، و أملت ظروف البعثات التبشيرية المهتدة للديانة الإسلامية ، و كانت البدايات في الحجاز ، و نجد ، و الكويت ، و البحرين^(٢٠) .

()

()

بدأ التعليم المنتظم في مؤسستين واضحتي المعالم :

- التي كان يديرها السادة العلماء و يعلمون فيها قراءة القرآن و تفسيره ، و الكتابة و سيرة الرسول الكريم صلى الله عليه و سلم و الصحابة الكرام و القادة و الخلفاء رضي الله عنهم.

- و قد تأسست أولاها في الكويت سنة (١٩١١ م) و سميت

(المباركية) نسبة إلى الشيخ

مبارك الصباح ، ثم تلتها مدرسة تبشيرية لتعليم اللغة الإنجليزية سنة (١٩١٧ م) . و في عام (١٩٢١ م) أنشئت (المدرسة الأحمدية) نسبة إلى الشيخ أحمد جابر الصباح و التي أنشأها أحمد عبد الله الصقر . و في سنة ١٩٢٤ م افتتحت مدرسة (السعادة) لصاحبها شملان بن علي آل سيف . و بعد أن أمر أمير البلاد بتشكيل مجلس للمعارف سنة ١٩٣٦ م وضعت كافة هذه المدارس تحت إشراف المجلس المذكور و أضيف إليها مدرستان إحداهما للبنين و الأخرى للبنات . كما افتتح وجهاء الشيعة مدرسة سنة ١٩٣٨ م أطلقوا عليها اسم (الجعفرية) .

و في البحرين قام عدد من المتورين بافتتاح عدد من المدارس كان في بدايتها^(٢١) :

البعثة التبشيرية الأمريكية (١٨٩٢ م) ، و (الهداية الخليفية) في المحرق ، و (الهداية الثانية) في المنامة عام ١٩٢١ م و مدرسة (الرفاع و الحداد) سنة ١٩٢٧ م ، و المدرسة (العلوية) سنة ١٩٢٨ م ، و مدرسة (البنات الأولى) (١٩٢٨ م) و المدرسة (الجعفرية) (١٩٣٠ م) .

و في دبي بدأ التعليم منذ عام ١٩١٢ م بافتتاح مدرسة (الأحمدية) . و في سنة

١٩١٣ م أضيف إليها مدارس اليتمية في الفجيرة ، و (ابن خلف) في أبوظبي ، و (السالمية) و (القاسمية) في الشارقة .

فضل الأيوبي

و على هذا المنوال انتشر التعليم الديني القائم على الكتاتيب أولاً في كل من الحجاز، و قطر و عمان و منذ العقد الأول من القرن العشرين بدأ التعليم الحديث ينتشر بافتتاح المدارس، و المعاهد العليا و التي كانت تديرها و تشرف عليها هيئات أو إدارات المعارف. و لم يقتصر النشاط التعليمي على افتتاح المدارس بل تعاقدت هذه المدارس مع العديد من الأساتذة العرب للعمل بها من العراق، و سورية، و لبنان، و فلسطين، و مصر. كما أوفدت إدارات المعارف العديد من البعثات الطلابية إلى البلاد العربية و الهند للتعليم و اكتساب المعرفة. و لم يقتصر

التعليم على الذكور فقط بل شمل الإناث أيضاً في كل إمارات الخليج على الرغم من تحفظ و معارضة بعض رجال الدين. و كان التعليم إلزامياً و ضرورياً يجب أن يشمل كل السكان، و قد ضمت هذه المدارس في صفوفها طلاباً من كل منطقة الخليج و الجزيرة العربية. أما بالنسبة للمكتبات فقد قامت مكتبات عديدة في البحرين مثل: مكتبة (نادي أوائل الليالي) ١٩٢٣م و المكتبة (الكمالية) ١٩١٩م و مكتبة (التاجر) ١٩٢٠م.

في الكويت أنشأ محمد الدعيج أولى المكتبات في الثلاثينيات تحت اسم (المكتبة الوطنية) ثم تلتها المكتبة (الأهلية) ١٩٣٤م. و هكذا نجد أن المؤسسات التعليمية التقليدية (الكتاتيب) و المدارس الحديثة و المكتبات قد أسهمت في تكوين نخبة مثقفة من أبناء الأسر الحاكمة، و التجار، و الأعيان، و رجال الأعمال، و حتى عامة الناس، فتطور الفكر و نمت الثقافة، و انتشر التعليم، و بدأ ظلام الجهل و الأمية يتراجع حيث أخذت المجتمعات المحلية في الخليج تبني حاضرها و تتطلع إلى المستقبل.

ولدت ثقافة اللؤلؤ من رحم أعقد الظروف الطبيعية المتمثلة في الصحراء و البحر، و من قلب بؤس و حرمان و عذابات البيئة البشرية. كانت على الرغم من تواضعها ذات خصوصية طبعت السكان بطابعها. و كانت مميزة بحيث إنها أسبغت مفاهيمها على

دور الثقافة في التنمية الاجتماعية في الخليج العربي

الخليجيين غنيهم و فقيرهم . و قد استندت هذه الثقافة إلى مرجعية الديانة الإسلامية بكل أركانها و إلى العادات و الأعراف و التقاليد .

و لم تكن ثقافة اللؤلؤ معزولة أو مغلقة على نفسها بل امتزجت بثقافات أخرى جاءت من شرق أفريقيا ، و من الهند و إيران ، لكنها لم تفقد خصوصيتها أو هويتها ، بل تفاعلت مع هذه الثقافات و ظهر هذا التفاعل جليا في أنظمة العمران و كافة أشكال الفولكلور الشعبي .

و كانت لهذه الثقافة أبعاداً قومية و إسلامية حيث بدا ذلك من خلال التضامن مع القضايا المطروحة آنذاك كالقضية الفلسطينية و قضايا استقلال البلاد العربية . لقد كانت ثقافة اللؤلؤ ذات أبعاد محلية و قومية و إسلامية و إنسانية ربطت سكان الخليج بسكان الجوار الجغرافي عبر القوافل التجارية ، و استقبال الأدباء ، و المفكرين ، و رجال الدين ، و أعلام الصحافة ، و استيراد الكتب و الصحف التي كانت تصدر في العراق ، و مصر ، و سورية ، و لبنان ، و الهند . هذه الثقافة الواعية المتفتحة لعبت دورا في تشكيل الهيئات و البنيات الاجتماعية التي قادت التطور الاجتماعي في منطقة الخليج و التي أسهمت بدورها في إغناء هذه الثقافة و تحقيق نقلة نوعية في حياة الخليج العربي خاصة في النصف الأول من القرن العشرين . غير أن ظروف الحرب العالمية الثانية و ظهور النفط و التحديث قد أوقفت اندفاع ثقافة اللؤلؤ . و عطلت دورها في الاستمرار بتنمية المجتمع وفق خصوصياتها و سماتها و طرائقها . و فتحت الباب على مصراعيه أمام نمط جديد للثقافة .

(..)

انبثقت ثقافة اللؤلؤ عن مجتمع يحترم العمل و يجله و يعدّه ضرورة قصوى و شرفا اجتماعيا كبيرا و جزءا هاما من الحياة ؛ لأن من لا يعمل لا يمكن أن يعيش على الرغم من أن العمل كان ضئيلا و غير متوفر للجميع . كان الرجال و النساء يعملون و ينتجون اقتصاديا ، و يحاولون الارتقاء بأعمالهم للحصول على أكبر كمية ممكنة من الدخل . و على

فضل الأيوبي

صحية وإيجابية وقادرة لا بد أن تستند إلى عناصر البناء الثقافي - الثابتة و المتغيرة - لكي تتمكن من تجديد المضمون الثقافي هو الأعم والأشمل و من ثم المضمون الاجتماعي .

لم تكن أبعاد و جوانب التغيير الاجتماعي داخل البناء العام للمجتمع مرصودة من قبل ، ولم تكن موضع اهتمام أو ملاحظة أو مراقبة ؛ وذلك للتمكن من قيادتها و متابعتها و تعميق جوانبها الإيجابية وتحديد آثارها السلبية و تحجيمها . كانت الثروة النفطية كفيلاً بما وفرته من مداخيل عالية بخلخلة البناء الاجتماعي و إفساد انسجامه السابق . وخلق ظواهر جديدة كان من المفروض حصرها ، و تهيئة كافة مؤسسات البناء للاستجابة لهذه التغييرات . لقد سببت الثروة النفطية تحولات هامة في تركيب المجتمع و بنياته ، و وظائفه .

و لكن هذا التطور المادي الذي شمل البنيات الاجتماعية ، هل شمل العلاقات الاجتماعية أيضاً ؟ العلاقات التي تشكل أساس المجتمع و قاعدته ، و الماسكة لكل مؤسساته و الناظمة لتطوره . و هل أصبح للأفراد و المؤسسات الاجتماعية سلوكا و تصرفات منسجمة مع التطورات الجديدة ؟ بل كيف أعدّ أفراد المجتمع أنفسهم لتقبل الحياة الجديدة بل الثقافة الجديدة و الحفاظ على تراثهم في آن واحد ؟ هذا ما أغفله عنا السوسيولوجيون العرب عامة و الخليجيون خاصة .

انتقل مركز الثقل من القيادات البدوية و القبيلية و الريفية إلى رجالات المال و الاقتصاد و المؤسسات الذين احتلوا مكان الصدارة في المجتمع و سيطروا على مؤسساته الاجتماعية و الثقافية و السياسية إضافة إلى سيطرتهم على

مؤسساته الاقتصادية . و حلت الانتخابات و الديمقراطية - النسبية - محل مجلس العشيرة أو القبيلة ، و أصبح تعدد الزوجات و تنوع جنسياتها أمراً محبباً و مطلباً ضرورياً لدى الرجل في المجتمع الخليجي ، و باتت مسألة المربيات و التعاملات في المنازل من جنسيات مختلفة ضرورة تحتمها المظاهر الاجتماعية الحديثة القائمة على فخامة الأبنية ، و ضخامة احتفالات الزواج و المناسبات الاجتماعية و قد ساعد على ذلك توفر المداخيل

دور الثقافة في التنمية الاجتماعية في الخليج العربي

السهلة . كما سهلت - وسائل الاتصال الحديثة و الأقنية الفضائية و السفر إلى الخارج و الاحتكاك بالمجتمعات الغربية المتطورة - عمليات التغيير هذه و وفرت لها مستلزماتها الضرورية . فهل تم ذلك التغيير و الانتقال من مؤسسات المجتمع القديمة إلى بنياته الحديثة ضمن إطار من التجديد الثقافي ؟ أم خلق فجوة ثقافية بين الأجيال ؟

لقد تغير أفراد المجتمع بذهنياتهم و سلوكهم و أفكارهم و ثقافتهم و ذلك كل حسب قدراته الذهنية و المادية و مجال احتكاكه و البيئة التي عاش فيها ، و الطموحات التي يحيا لأجلها ، و نجاح هؤلاء الأفراد في مساعهم بإحداث تغييرات اجتماعية هامة كان لها صفة الشمولية بمساعدة : التقنيات الحديثة التي رافقت ظهور النفط و تطور عمليات استخراج و تكريره و نقله و بيعه . و ظهور الصناعات التي شكلت مخرجات للصناعة النفطية مثل البتروكيماويات و غيرها . إضافة إلى صناعات و سيطرة و صغيرة لتغطية جزء من الاحتياجات العامة . و يمكننا القول بأن بكافة مستوياته و ما وفره من الانفتاح على الثقافة الأجنبية ، و ما تطلبه من تهيئة للكوادر ، و من ظروف اجتماعية جديدة قد لعب الدور الأساس في عملية التغيير الاجتماعي ، بل كان هو المفتاح الحقيقي لفتح باب التغيير الاجتماعي على مصراعيه .

و لم يقتصر الموضوع على عنصر وحده في عملية التغيير الاجتماعي ، بل انضم إليه عنصراً آخرأ يتمثل في إحداث مؤسسات ذات طابع حديث تعتمد على التخطيط و البرمجة في عملها ، و قد انتشرت هذه المؤسسات في كافة مرافق الدولة في مناطق الخليج . فقد حتمت انتقال تيارات من الهجرة إلى المراكز الحضرية الكبرى . و إلى المدن حيث توجد الحضارة و الحياة الحديثة و فرص العمل و المؤسسات الصحية و التعليمية . لكن هذا لا يعني عدم تخصيص برامج تنمية و تطوير للمناطق الريفية . هذه هي بعض العوامل التي ساعدت على التغيير و هي ليست منعزلة عن بعضها بل العكس هي بمثابة الحلقات التي ترتبط ببعضها أشد الارتباط ، يساعدها في ذلك وجود شخصيات مميزة و فذة و قادرة على التغيير و التجديد .

و ما من شك في أن التغييرات الاجتماعية و الاقتصادية ذات تناسب طردي تحدث آثارا على المستويين الاقتصادي و الاجتماعي ، فكل تطور اقتصادي لابد أن يصاحبه

فضل الأيوبي

تحديث اجتماعي ، و كل نضوج و تطور اجتماعي ينعكس إيجابيا على النشاط الاقتصادي و توسيع آفاقه . لكن ما يهمنا الآن هو رصد التغيرات الاجتماعية التي تصيب السكان من حيث تجمعهم أو تفرقهم ، زياداتهم ، كثافتهم ، تكوينهم الثقافي ، التنظيم الاجتماعي ، الحراك الاجتماعي بل و حتى الحراك المكاني ، و كذلك التعرف على ما طرأ على حياة الأسرة من تبدلات من حيث المكانة الاجتماعية و الحجم و التفكك أو التآزر و التماسك ، و الدور و كل ما يتعلق بالقيم و العادات و التقاليد .

و الأهم من هذا و ذلك هو لمصلحة من يحدث التغيير الاجتماعي ؟ و أي الشرائح الاجتماعية بل أي الطبقات هي المستفيدة من هذا التغيير .

خلاصة لهذه الفقرة نقول بأن التغيرات الاجتماعية تحدث ؛ نتيجة لعوامل عديدة أهمها : الاجتهاد و التحديث الديني (في غير الثوابت) ، و النمو الاقتصادي ، و التقدم التقني ، و تطبيق خطط التنمية ، و التطور الصناعي و إيجاد هياكل بنوية جديدة للاقتصاد مثل التعاونيات و النقابات و البلديات . و التغيير الاجتماعي لا يحدث بدون معوقات و بدون آثار و نتائج سلبية ، فالمعوقات التي تقف في طريق التغيير كثيرة و تتمثل في نوعية التراث و طبيعته ، التواكل ، تضارب السمات الثقافية ، المفاهيم الشعبية السائدة و المصالح الشخصية ، و العزلة الجغرافية^(٢٤)

كيف عملت الثروة النفطية على خلق بنيات اقتصادية جديدة ؟ و كيف أثرت على التكوينات الاجتماعية ؟ و ما هي الثقافة الناجمة عن مشاريع التنمية ؟ بل ما هي خصائص و وظائف هذه الثقافة الجديدة ؟

-

بمجرد ظهور النفط في الخليج أخذت معدات استخراج و المتمثلة بالتكنولوجيا الحديثة و الخبراء المصاحبين لها بالتدفق على مناطق إنتاجه . و تطلب العمل استقدام مجموعات عمالية متخصصة لضخ النفط من آباره إلى موانئ تصديره . و أخذت عائدات

دور الثقافة في التنمية الاجتماعية في الخليج العربي

البتروال الضخمة تتراكم في البلاد حيث استخدمتها الحكومات في إقامة مشاريع تنمية هامة تمثلت في العديد من الشركات، و المشاريع، و الاستثمارات، و البنوك . و فتحت الأبواب على مصراعها للشركات الأجنبية بمختلف تخصصاتها لإقامة مراكز و مشاريع لها في البلاد . و هكذا توفرت عشرات الآلاف من الفرص الوظيفية أمام السكان ، و تبدلت القاعدة الاقتصادية السابقة القائمة على الرعي، و تربية الماشية، و صيد الأسماك، و استخراج اللؤلؤ، و عدم الاستقرار، و التنقل إلى قاعدة جديدة قوامها وسائل الإنتاج الحديثة و المعقدة و العائدات النفطية، و البنوك، و المصارف، و الاستقرار .

لم تقتصر تيارات الهجرة على اليد العاملة العربية و الآسيوية، إنما استقطبت العديد من السكان القاطنين في تجمعات صغيرة منتشرة في أرجاء البلاد . و تحولوا من نظام البداوة و الترحال إلى نظام الحياة المستقرة . فبدأت المدن بالتوسع خاصة بعد إقامة موانئ تصدير النفط مثل الأحمدى، و رأس تنورة، و الدمام، و أم سعيد^(٢٥)، و المنامة، و مسعيد، و ستره، و جبل علي، و غيرها، و زاد معدل التحضر في الخليج في السبعينيات من القرن العشرين عن ٨٠ ٪ .

و زاد عدد سكان المدن زيادة ملحوظة و هامة بعد أن أضيفت إلى موانئ تصدير النفط مهمة تكريره و استقبال الصناعات التي تشكل مخرجات لصناعة التكرير مثل البتروكيمياويات و تميع الغاز، و البلاستيك و المواد الكيميائية المختلفة . و هكذا لمعت و تالأت مدن كثيرة مثل : الكويت و المنامة و الدوحة و أبوظبي و دبي و مسقط و الدمام و الجبيل و الخبر و الظهران و غيرها .

و نظرا لتعاظم سكان المدن، و تعدد مشاريع هذه المدن و شركاتها، و تنوع قاعدتها الاقتصادية، فقد فتحت أبواب البلاد أمام الإستيراد . فشملت المستوردات :

فضل الأيوبي

المواد الغذائية ، والسيارات ، والإلكترونيات ، والملابس و العطور ، و المفروشات و أدوات البناء و غيرها . و لم تكن هناك أية حدود للرغبة في الاستهلاك بل كانت هذه الرغبة تتعاطم باطراد .

و لعل أهم ما يمكن ملاحظته على خطط التنمية الخليجية المتتابعة هو الإنفاق على البنى التحتية خاصة شبكات الطرق ، و الساحات العامة و المطارات و الموانئ ، و تحلية المياه . لكنها لم تهمل أبدا الخدمات الاجتماعية بل توسعت بها على نحو واضح تمثل في :

- التي حلت محل الأحياء و الشوارع القديمة و تعويض أصحابها بمبالغ كبيرة و الاستعاضة عنها بأحياء سكنية و شوارع و ساحات حديثة .

- : توسعت المشاريع الصحية توسعا مذهلا شمل مئات المستوصفات و العيادات الخاصة و المستشفيات العامة و التخصصية بحيث مكنت المواطنين في أي مكان تواجدوا فيه من العلاج .

- : لقد حظيت هذه المؤسسات باهتمام شديد شمل كافة المراحل من الابتدائية حتى الجامعة . فافتتحت لذلك مئات المدارس و العديد من الجامعات و المعاهد و الكليات و ذلك في محاولة للقضاء على الأمية و نشر التعليم بكافة مراحلهم بين البنين و البنات .

و لم يقتصر الأمر على ذلك بل أوفدت السلطات التعليمية البعثات إلى الخارج لتلقي العلوم الحديثة من الولايات المتحدة و بريطانيا . و كان التعليم مجانيا بل و ينال الطالب مكافأة شهرية للالتحاق بالجامعة .

- : و قد رصدت لذلك أموال ضخمة من أجل إقامة محطات التحلية و بناء شبكة من الخزانات و الأنابيب ؛ لإيصال المياه العذبة إلى كافة أنحاء المدن .

دور الثقافة في التنمية الاجتماعية في الخليج العربي

- : و ذلك بتوفير دخل للعاطلين عن العمل ، أو الذين لا دخل لهم أو المرضى و ذوي الحقوق ، أو الطاعنين في السن ، أو ذوي الحاجات الخاصة .
و هكذا عملت العائدات النفطية على إحداث تغيرات حقيقية في حياة الخليجيين و وفرت لهم أفضل الخدمات الاجتماعية ، و أرقى أنواع الحياة و الرفاهية . لكن السؤال المهم الذي يطرح نفسه هنا : هل الثقافة التي أبدعت هذه الحياة هي ثقافة خليجية ؟ و هل الثقافة التي تقود هذه الحياة الحضرية هي ثقافة أبناء الخليج ؟ و هل الفكر الذي يدير عجلة الإنتاج و التطور و التقدم هو فكر محلي صرف ؟؟ . و لكن لنر قبلًا آثار الثورة النفطية على المستوى الاجتماعي .

- لقد سمحت العائدات النفطية بتشكيل بنية اقتصادية جديدة لكنها محدودة القاعدة و غير متنوعة و تركزت أساساً على إنتاج و تكرير و تصدير النفط ، تطلبت وجود تقنيات و خبرات و عمالة أجنبية لها خصوصيتها الثقافية و أذنت بتوفير سيولة نقدية كبيرة للمواطنين ، و تركت بصماتها واضحة على التشكيلة الاجتماعية ، و قد تجلت هذه البصمات من خلال النقاط التالية :

(: كان
الانسجام و السيطرة و التعامل مع التقنيات الجديدة في البداية محدوداً و هذا ما جعل دور الإنسان الخليجي في عملية الإنتاج الجديدة متواضعاً . أو بعبارة أصح أصبحت مشاركته في العملية الإنتاجية محصورة بمحدود بسيطة . على عكس ما كان عليه الوضع قبل اكتشاف النفط حيث ساهم إنسان الخليج بتكوين اقتصاده بعقله و جهده و عرقه . و لم يتطور هذا الانسجام إلا في أوقات متأخرة نسبياً .

فضل الأيوبي

(: لقد حمل الخبراء و تيارات المهاجرين و العاملين في حقول النفط ثقافتهم معهم ، فتركت هذه الثقافة آثارها على الثقافة الخليجية .

نظرا :

(لتوفر السيولة النقدية و حصول المواطنين على دخول عالية ، انخرط الخليجيون في حياة استهلاكية لم يسهموا في إنتاج مكوناتها بل كانت مستوردة كلية من الخارج ، و بسبب الاختلاط مع القادمين الجدد إلى الخليج اكتسبوا عادات غذائية جديدة و أخذوا يتخلون بالتدريج عن النموذج الغذائي الوطني .

(: لقد أذن توفر السيولة المالية الكبيرة بحصول الأفراد على دخول سهلة مما أدى إلى نتيجتين مهمتين و أساسيتين :

- ن العمل لم يعد له قيمة اجتماعية ضرورية لتكوين الشخصية الاجتماعية للفرد ، و كوسيلة للإرتقاء و التطور في المجتمع .
- هجر الخليجيين للحرف و الصناعات اليدوية و الأعمال التي كان يمارسها أجدادهم .

(: و لعل أهم التطورات الاجتماعية تمثلت في تراجع نظام القبيلة و حلول نظام الدولة مكانه . و كانت القبيلة في إطار نظام البداوة ، هي الحامية و الحاضنة لأبنائها و الكافلة لحياتهم الاقتصادية و الاجتماعية . و هي التي توفر لهم الأمن ، و تضمن بقاءهم . و تكرر قيمهم الخلقية بالولاء و الانتماء و الشجاعة و الكرم و الالتزام و الطاعة . و لكن حلول الدولة محل القبيلة لا يعد خطأ بل هو مرحلة من مراحل التطور الاجتماعي المطلوب شريطة أن تنجح الدولة في تجميع كافة القبائل ضمن إطار الوحدة الوطنية و خلق وحدة اجتماعية تتمتع بنفس الخصائص و المزايا التي كانت توفرها القبيلة لأبنائها .

(: عملت المدينة ببريقها و جاذبيتها على استقطاب تيارات كبيرة من مناطق مختلفة من الخليج و خاصة الشرائح البدوية . و قد استجابت هذه التيارات بالهجرة إلى المدن بحثاً عن الحياة الأفضل و المستقبل الواعد من جهة و بسبب غياب الخدمات الأساسية في مناطقهم و ضعف البنية الاقتصادية لهذه المناطق ، و توفر فرص العمالة في المدينة ، و غناها بالمؤسسات الخدمية و الثقافية من جهة أخرى .

(: كانت القبيلة توفر لأبنائها الحياة الجماعية . سواء في الإنتاج أو الحياة الاجتماعية المشتركة و المتعاونة في الأفراح و الأتراح ، بل حتى في مواجهة الغزو و اتخاذ القرارات الخاصة بالقبيلة . في المدينة وجد الناس أنفسهم موزعين بين أحياء بعضها ثري و بعضها الآخر فقير و لا توجد رابطة بينهما . بل وجدوا أنفسهم في عمارات و مساكن معزولة بعضها عن بعض قلما يعرف الساكن جيرانه أو تربطه بهم علاقة اجتماعية إلا نادراً . بعبارة أخرى انتقل الناس من حياة القبيلة الجماعية إلى الحياة الفردية المنعزلة في المدينة . لقد وجد الناس في المدينة علاقات باردة و ليست حميمة و تفتقر إلى أبعاد إنسانية كثيرة . و على الرغم من ذلك كان لابد من العيش و التأقلم في هذه الغابات الأسمنتية .

(: على الرغم من اعتزاز البدوي بأخلاقه و عاداته القبلية من حيث الشجاعة و الكرم و إغاثة الملهوف و التواصل الاجتماعي ، و الحياة المشتركة فإنه في المدينة لم يستطع الاحتفاظ بالكثير من هذه الصفات و الشيم . فحياة المدينة غير حياة البادية ، فهي تتصف بالفردية و العزلة و تتطلب عادات و قيماً حياتية جديدة تتناقض تماماً مع عادات و تقاليد و قيم الحياة التي نشأ عليها الخليجيون .

(: على الرغم من اتساع قاعدة المتعلمين و الحاصلين على الشهادات العالية فإن دورهم مازال أقل من المطلوب في مجال اتخاذ القرارات على كافة المستويات على الرغم من وجود استثناءات حديثة ظهرت في الكويت و قطر و البحرين . بينما كان الناس في ظل القبيلة يشاركون في كل القرارات الهامة التي

فضل الأيوبي

تخص حياتهم و ترصد مستقبلهم و مستقبل أبنائهم . بينما المطلوب هو المشاركة الفعالة في الحكومة و المجالس المحلية و الشعبية .

(: على الرغم من التاريخ المشرف للمرأة الخليجية التي أنتجت اقتصاديا و حاربت إلى جانب الرجل ، و مارست دورها الطبيعي في الإنجاب و تربية الأطفال و تحضير الأبناء و تكوين الشباب و تقديمهم رجالا للمجتمع . و التي لم يكن صراعها مع الحياة الصعبة أقل من الصراع الذي خاضه الرجل من أجل البقاء . إلا أن مساهمتها في الحياة الجديدة لا زالت محدودة على الرغم من أنها تتعاضد يوما بعد يوم . وهي مدعوة للمشاركة بقوة في كافة المجالات التي يسمح بها الشرع و تتناسب مع العادات و التقاليد ؛ و ذلك لأخذ المكانة اللائقة بها .

(:لقد حدث في الآونة الأخيرة اعتماداً متزايداً على العمالة الأجنبية و خاصة الآسيوية منها : الفلبينية و البنغلاديشية و الهندية و الباكستانية و السيرلانكية و غيرها : و بلغت هذه العمالة أعداداً هائلة فإذا ما أضيف إليها العماله العربية الوافدة أصبح مجموع هذه العمالة رقما هاما جدا بالنسبة لعدد السكان ويشكل خطرا على البنية السكانية للمنطقة في أي إمارة من إمارات الخليج . و هذا ما يهدد تماسك وحدة المجتمع المحلي ، و يدخل عليه عادات و أساليب و أنماط جديدة و غريبة تؤثر على خصوصيته الثقافية المحلية .

و الآن نتساءل عن الثقافة و دورها و موقعها بعد الثورة النفطية و هذا ما سنحاول الإجابة عنه في الفقرة التالية :

بعد أن استعرضنا التطورات التي أحدثتها المداخل النفطية بالبنيتين الاقتصادية و الاجتماعية في منطقة الخليج نتيجة لدخول التقنية و تحديث أساليب الإنتاج نتساءل الآن

دور الثقافة في التنمية الاجتماعية في الخليج العربي

عن الثقافة الجديدة التي تولدت عن هاتين البنيتين و بالمقابل نساءل عن الآثار التي تركتها هذه الثقافة على هاتين البنيتين و على مستقبل منطقة الخليج برمتها . فما هي سمات الثقافة الجديدة ؟ وما هي مؤسساتها و أشكالها و وظائفها ؟ و هل لها علاقة بالفكر الذي يدير عجلة الإنتاج و يرسم آفاق التطور السياسي و الاقتصادي و الاجتماعي المستقبلي للخليج ؟ هذا ما سوف تناوله هذه الفقرة .

لقد سمحت العائدات النفطية للثقافة الخليجية أن تمتلك بنى و مؤسسات و أن تظهر بأشكال جديدة و متعددة تجلت في البنيات التالية :

-

خطا التعليم في كافة دول الخليج خطوات واسعة ، سواء على الصعيد الكمي بافتتاح المدارس ، و الجامعات ، و المعاهد ، و تهيئة الكوادر العلمية من أساتذة و فنيين أو على الصعيد النوعي بالارتقاء بالعملية التعليمية و ربطها بالتكوين المستمر و الترقية و إغنائها بالأبعاد القومية و الإنسانية .

-

لقد حفلت دول الخليج بمراكز البحث العلمي المتخصصة و الشاملة للعلوم الإنسانية و التطبيقية حيث تتمتع هذه المراكز بمستويات علمية رفيعة و ضمت إليها أفضل الكوادر في الوطن العربي .

-

تطور عالم الصحافة في منطقة الخليج عامة ، و الكويت خاصة تطورا مذهلا ، وواكب بذلك التطورات العالمية في هذا المجال . فمنذ الخمسينيات و حتى يومنا هذا يتزايد حضور الصحافة السياسية و الثقافية العامة ، و المتخصصة بل إن بعض هذه الصحف و المجالات لعب دورا كبيرا في نشر الوعي الثقافي في الوطن العربي مثل () . إلى جانب مجالات أخرى تخصصية مثل العلوم و دراسات الخليج و الجزيرة العربية ، و العلوم الاجتماعية و غيرها .

فضل الأيوبي

و قد ساعدت هذه الصحافة على التطور السريع عوامل عديدة ، أهمها :
أ) ثورة المعلومات و الاتصالات و التقنيات الحديثة .

ب) الثورة في عالم الطباعة .

ج) القاعدة المادية القوية التي وفرتها الدولة

د) تراكم الخبرة و التجربة و الكوادر و ظهور أقلام جريئة و محللين على مستوى

مهني رفيع .

هـ) ارتفاع القدرة الشرائية لدى المواطن و حرصه اليومي على قراءة صحيفته

المفضلة أو بالأحرى صحفه المفضلة.

و) الحرص على متابعة التطورات السياسية و الاقتصادية المحلية و العربية و العالمية

-

كانت المطابع قبل الطفرة النفطية في الخليج عامة لا تزيد على أصابع اليد الواحدة

وكانت محدودة من حيث النوعية التقنية ، و من حيث المتخصصون الفنيون و من حيث

الإنتاج و ذلك بسبب ضيق السوق المستهلكة للإنتاج ؛ الطبيعي من جهة ، و لقلّة

النشرات و الصحافة و المجلات و الكتب التي تصدرها تلك المطابع .

و لكن منذ الستينيات ، تزايدت المطابع يوما بعد يوم الحكومية منها و الخاصة ، في

العدد و تطورت في النوع و قد ساعدها في ذلك ؛ اتساع السوق المستهلكة ليس في الخليج

وحده إنما في الوطن العربي و في كل مكان توجد به الجاليات العربية من العالم .

-

في الخمسينيات من هذا القرن كانت دور النشر محصورة في بيروت و القاهرة و هي

المصدر الأول للكتاب لكافة أنحاء الوطن العربي . و كان لهذا الاحتكار أثره على نوعية الثقافة

و الكتابات و الأفكار التي تريد هذه الدور نشرها . و لقد سمحت الطفرة النفطية بتوالد دور

النشر و تكاثرها في طول الخليج و عرضه و في شبه الجزيرة العربية ، تسير وفق سياسات تتطلبها

دور الثقافة في التنمية الاجتماعية في الخليج العربي

عوامل كثيرة منها : الخصوصية المحلية و التعريف بالكتاب المحليين دون إهمال فسح المجال أمام الإنتاج العربي ، وتلبية التطلعات الخاصة لسكان الخليج و تشجيع الإنتاج المحلي . ودخول عالم المنافسة مع دور النشر الأخرى ، و تحديث الثقافة المحلية ، و ملء الفراغ الناجم عن تراجع أعمال دور النشر في المناطق العربية الأخرى ، و عدم قدرتها على الاستمرار في المنافسة ؛ بسبب ارتفاع تكاليف الطباعة و النشر .

تعددت الأندية الفكرية ، و الأدبية ، و الثقافية ، و الاجتماعية ، و الرياضية ، و تفرع عنها العديد من الجمعيات التي تمارس نشاطا في مجال الشعر ، و القصة ، و الرواية ، و المقالة ، و ضروب الأدب الأخرى و التي تحاول نشر الوعي الأدبي و المعرفي بين السكان . و تستند في استمراريتها على دعم الدولة لها و تبرعات المنتمين إليها .

عرفت منطقة الخليج النشاطات السياسية وتشكيلاتها منذ وقت مبكر خاصة الكويت و البحرين . وقد ارتبط تطور هذه التشكيلات التي لم ترتق إلى مرتبة أحزاب لاسيما و نشاطها كان في معظم الأحيان سرىا - بالأحداث القومية الكبرى مثل نكبة فلسطين و العدوان الثلاثي على مصر ، و وحدة سورية و مصر ، و عدوان ١٩٦٧ و حرب ١٩٧٣ إلخ . و كذلك باتساع القاعدة العمالية العاملة في مجال النفط ، و لكن بعد هزيمة حزيران ، و مشاريع التسوية العربية الإسرائيلية ، و فشل الأحزاب القومية في تحقيق أهدافها و سقوط الأنظمة الاشتراكية ، أخذت الأنظار تتجه إلى القوى الإسلامية التي عرفت نهوضا واضحا في العالمين العربي و الإسلامي .

إن هذه القوى السياسية و التي تعبر عن نفسها بأشكال مختلفة و إن كانت رسميا لا تمارس نشاطها و دورها عبر مؤسسات المجتمع المدني لكنها عمليا موجودة بين الناس و لكن لا زال أثرها في تطوير الحياة السياسية العامة محدودا .

-

يمكن اعتبار الديوانيات برلمانات صغيرة تلتئم يوميا كظاهرة اجتماعية لكنها و بعد أحداث الخليج أصبحت تهتم بمناقشة كافة الشؤون المحلية و السياسية العربية و الدولية و من مختلف الآراء و الاتجاهات . هذه الديوانيات القديمة النشأة و ذات الدور المميز في مراقبة المجتمع لسياسة الدولة ، و لتطور العلاقات الإقتصادية و الاجتماعية في المجتمع تعتبر مدارس سياسية لتكوين الرأي العام و تعبئته تجاه مختلف القضايا . و هي ظاهرة اجتماعية و سياسية هامة لا نجد نظيرا لها في أمكنة أخرى من الوطن العربي و هي نتاج لثقافة اللؤلؤ التي سادت قبل ظهور النفط .

-

لقد سمح تحسن المستويات المعيشية و انتشار الصحافة و الاحتكاك بالأوساط الثقافية العربية و الأجنبية ، و انتشار الفضائيات بأنواعها المختلفة ، و تحسن المستويات الثقافية لدى المواطنين الخليجيين إلى ظهور إبداعات ثقافية واعدة في مجالات الأدب ، و المسرح ، و التلفزيون ، و الرسم ، و الموسيقى ، و الغناء ، و النحت . و إذا كانت حركة الإبداع هذه بين مد و جذر فذلك يعود لأسباب عديدة أهمها : طغيان المستوى التجاري لهذه الإبداعات على حساب الأعمال الفكرية الجادة و هذا لا يخص الخليج وحده و إنما يمتد ليشمل الوطن العربي كافة حيث يلاحظ هبوط مستوى كافة الأعمال الفنية و الإبداعية بكافة أنواعها .

إذا توفر للثقافة الجديدة ، قاعدة اقتصادية حديثة ارتكزت على تقنيات مستوردة أنتجت ثقافة أخرى ، و توفر لها قاعدة مادية لم تتوفر لسابقتها ، و حظيت ببنيات و ركائز لم تكن تحلم بها ثقافة اللؤلؤ . ماذا حققت ثقافة المرحلة الحالية ؟ و ما هي تجلياتها و ما هو دورها في التنمية ؟ . الإجابة على ذلك تكون في النقاط التالية :

دور الثقافة في التنمية الاجتماعية في الخليج العربي

(: على الرغم من كل الإمكانيات التي توفرت للثقافة الخليجية المعاصرة و على الرغم من امتلاكها لبنيات عديدة حديثة و مؤسسات قادرة ، فإنها ما زالت تفتقر إلى رؤية واضحة للنهوض ، و تشكو من التفكك و عدم تلازم مساراتها ، و لم تعلن عن مشروع متماسك للمستقبل .

(: وجدت ثقافة ما بعد النفط نفسها أمام تقنيات إنتاج مستوردة من الدول المتطورة ، و اعتمدت عليها في تحديث البنية الاقتصادية للخليج و بالتالي بنيتها الاجتماعية . و لم تنجح في السيطرة على هذه التقنيات و وضعها في خدمة المجتمع الخليجي . و ما من شك في أن التكنولوجيا المستوردة (معدات ، و خبراء ، و فنيين ، و عاملين) تحمل ثقافة و فكر المجتمع الذي أنتجها . بينما لاحظنا في تحليلنا السابق أن ثقافة اللؤلؤ كانت منسجمة كل الانسجام مع بنية المجتمع الاقتصادية و تركيبته الاجتماعية ، و كانت علاقة التنمية بينهما جدلية .

(: لقد سمحت هذه السيطرة التقنية ، و الاحتكاك المتزايد بالمجتمعات الرأسمالية عن طريق الأقتنية الفضائية و وجود عمالة أجنبية على نطاق واسع ، و رحلات الاستجمام و السياحة إلى الخارج ، و البعثات الدراسية إلى جلب ثقافات جديدة شكلت بما تحمله من فكر ، و عادات ، و تقاليد كاجاً معرقلاً للثقافة المحلية . و خطراً أكيداً على تطورها المستقبلي ، بل شكلت مدخلاً لتكريس الاستغلال الاقتصادي ، و تهميش الثقافة الوطنية .

(: لقد تكونت تيارات ليس فقط في الخليج العربي إنما في طول الوطن العربي و عرضه مبهورة أشد الانبهار بالثقافة الأمريكية ، و حياة الغرب و قيمه ، و عزت بعض الشرائح و الفئات تخلفها إلى ثقافتها ، و أخذت في التحلل و التنكر لهذا الانتماء الثقافي و تبنت العادات و الثقافات الغربية . و نظرت إلى الثقافة العربية على أنها ثقافة

فضل الأيوبي

متخلفة عاجزة عن تحقيق التطور . و هذا ما تسعى العولمة إليه من سحق للثقافات الأصيلة و الوطنية ليسهل إدماجها و إلحاقها بركبها تمهيدا لإلغاء الشخصية الوطنية و تحقيق التبعية الكاملة .

(ما من شك في أن هدف أي ثقافة يتمثل في العمل على إنجاز مهمات الاستقلال الوطني و المتمثلة في كسر أطواق التبعية السياسية و الاقتصادية للخارج ، و الحفاظ على الثروة الوطنية ، و تأمين تطور المجتمع ، و هذه إحدى المهمات الصعبة أمام الثقافة الوطنية التي يتوجب عليها مواجهتها .

(إن مسألة التصدي للتبعية السياسية و الاقتصادية تحتاج إلى تكتيل و تجميع للقوى و استنهاض عام للحفاظ على الاستقلال و الوحدة الوطنية و ثروات البلاد . لذلك لا يمكن للسياسات القطرية و المحلية الضيقة و الشديدة الخصوصية أن تنجح في التصدي لمثل هذه المهمات الصعبة .

(عرفت إمارات الخليج برمتها و شبه الجزيرة العربية و العراق تطورا عمرانيا مذهلا ، و أصبحت المدن لآلئ حقيقية منثورة وسط الصحراء : الكويت ، دبي ، العين ، الشارقة ، الرياض ، جدة و غيرها . رافقه توسع هائل في قطاع الخدمات ، و عبر الثراء عن نفسه في كافة مجالات الحياة . لكن التساؤل هنا هل رافق هذا التطور المادي ، ثورة فكرية و ثقافية تسيطر على هذا النمو الحضري و تقوده و تسدد خطاه ؟ .

(لقد أدى الدخول المتزايد لأجهزة الحاسوب (الكومبيوتر) و أنظمتها المختلفة و برامجها المتنوعة ، و التعامل مع شبكات الأنترنت ، و الارتباط التجاري الوثيق مع الشركات في جنوب شرق آسيا و الولايات المتحدة و اليابان إلى التوسع في استعمال اللغة الإنجليزية ، لدرجة أن طالب أي وظيفة مهما كانت متواضعة يشترط عليه إتقان اللغة الإنجليزية أولا ، بمعنى أنها ستكون لغة التعامل و التداول . إن هذا التوجه قد يشكل خطرا على مستقبل لغتنا بدون أدنى شك .

دور الثقافة في التنمية الاجتماعية في الخليج العربي

لقد تطورت ثقافة ما بعد النفط ، و امتلكت مؤسسات و بنى هامة جدا ، لكنها لم تنجح في حشد الرأي العام خلفها للتصدي لسائل في غاية الخطورة مثل :
ردم الفجوة التقنية بين الخليج و الدول المصدرة للتقنيات ، و تحطيم قيود التبعية السياسية و الاقتصادية ، و تحقيق الأمن و التواصل الثقافي ليس بين دول الخليج فقط و إنما مع الوطن العربي أيضا ، و مواجهة الغزو الثقافي و الفكري ، و تحقيق تنمية اجتماعية مأمولة تستطيع رفد المؤسسات الثقافية بإطارات و روافد جديدة تدعمها و تعزز من جهودها في تحقيق الأهداف المنشودة من الثقافة .

إن المقارنة الأولية بين ثقافة اللؤلؤ و ثقافة ما بعد النفط تظهر أن الثقافة الأولى كانت أكثر التصاقا بالناس و أكثر خصوصية ، و أكثر مقدرة على التعبير عن تطلعات هؤلاء الناس ، و لعبت دورا في تكوين البنية الاجتماعية و حققت التواصل الثقافي مع بقية الدول العربية ، و كانت منفتحة على حضارات الشعوب المجاورة و قادرة على هضم و تمثل الجديد و إعادة صياغته ضمن أطرها و مفاهيمها و مؤسساتها ، و قدمت مجتمعا نقى الثقافة ، صادق الالتزام ، قوي الملامح ، عرك الحياة ، و انتصر عليها و انتزع منها حق البقاء .

في تناولنا للمحورين السابقين (ثقافة اللؤلؤ و ثقافة ما بعد النفط) تبين لنا أن هناك تراكماً ثقافياً هاماً و إمكانات مبشرة . لكن الأساس و المحور في هذه الثقافة المتراكمة ، هو الثقافة الأصيلة المعبرة عن الذات و الخصوصية الخليجية و العربية ، الثقافة التي صنعها المجتمع بمعاناته و مكابדתه ، و استمدتها من تعاليم دينه و عاداته و تقاليدته . بينما لازالت

فضل الأيوبي

خطوات ثقافة ما بعد النفط في تطوير هذه الذاتية و تلك الخصوصية أقل سرعة مما هو مأمول في الوقت الذي هي مدعوة فيه إلى تنمية نفسها و امتلاك المؤهلات اللازمة لتقود التنميتين الإقتصادية و الاجتماعية .

و الآن يحين موعد السؤال الجوهرى و الأساسى فى هذا البحث . أى الثقافتين هى الأقدر على قيادة و إحداث التنمية الاجتماعية و قد عرفنا تاريخية النشأة لكل منها ، و العوامل التى قامت عليها و البنى التى امتلكتها و الأهداف و الوظائف التى تصدت لها ؟ . الإجابة بكل بساطة : لا هذه و لا تلك و ذلك للأسباب التالية :

١ - فتقافة اللؤلؤ بصفتها و نقائها و بساطتها و الإطار الذى تكونت فى رحمه لم تعد تصلح أو تلائم التطورات الحديثة ، و المتطلبات المعقدة لحياة هذا العصر . لكنها يجب أن تبقى و تظل هى الأساس الذى نبني عليه و هى الروح لكل ثقافة جديدة تستطيع قيادة التطور .

٢ - أما ثقافة ما بعد النفط فلم تمتلك بعد معالم واضحة إنما لجأت إلى التوفيقية من

أجل الاستمرار ، و هى تفتقر

إلى الكثير من الخصوصية و التواصل و المميزات و القدرات لتنمي نفسها أولاً ،

و لتمتلك شخصية مميزة ثانياً ، و برنامجاً استراتيجياً لتقود عملية التنمية الوطنية ثالثاً .

إذا :

نقول : إنه لا يمكن لأية ثقافة أن تقود أى نوع من أنواع التنمية منفرداً ، فنحن لا

نستطيع أن نطور التربية و التعليم و اقتصاد الدولة و مجتمعها متخلف ، و لا نستطيع استثمار أى منشأة مائة مهما عظم شأنها و كبرت استثماراتها إذا كانت أساليب الزراعة و الري فى حوضها متخلفة .

فالتنمية عملية متكاملة مترابطة و متداخلة بعضها مع بعض : التنمية الثقافية تسير

جنباً إلى جنب مع التنمية الاقتصادية و الاجتماعية و لا يمكن عزل إحداها عن الأخرى ،

دور الثقافة في التنمية الاجتماعية في الخليج العربي

و لا بد أن تضع كل حلقة من حلقات التنمية نفسها في خدمة الحلقات الأخرى ؛ لأن العلاقة بينهما جدلية . فثقافة اللاعنف المتكاملة (سياسيا و اجتماعيا و اقتصاديا) التي قادها غاندي في الهند أدت إلى استقلال و تنمية البلاد و وضعها في مصاف الدول الكبرى ، و سياسة اللاعنف التي ناضل في إطارها المؤتمر الوطني الأفريقي بزعامة نلسون منديلا أدت إلى انهيار النظام العنصري و قيام نظام ديمقراطي أعاد الأمور إلى نصابها .

للإجابة على تساؤلنا المبدئي لا بد من تحليل نقطتين أساسيتين :

الأولى و تتمثل في :

.....

تتميز الثقافة الرافعة التي تقود المجتمع الخليجي خاصة بل و العربي عامة

بالخصائص التالية :

-

قبل الإشارة إلى المصادر الوضعية الأخرى التي يمكن أن تغذي الثقافة الجديدة لا بد من الإشارة إلى أن هما المصدر الثري الذي نستمد منه الثقافة و أصول الحياة ، و النظرة إلى الإنسان و الكون و الآخر . و كل ما دونهما فهو نسبي - الشريعة الإسلامية التي اتخذت مواقف من كل شيء في الحياة و لم تدع شاردة و لا واردة إلا أحصتها ، و هي التي نسجت جلدنا و وضحت معالمنا ، و ميزتنا عن الآخرين (ليس تفضيلا) و أعطتنا شخصيتنا . لا نستطيع أبدا تشويهها أو استبدالها . فالبون شاسع بين ما قدمه الله لنا و بين الأنظمة الوضعية .

الإسلام قدم لنا قبل ١٤٢٠ سنة من الآن حقوق الإنسان ، و تحدث عن حريته قولا و فعلا و آخى بين الشعوب ، و أعطى للمرأة حرية افتقرتها لدى الديانات الأخرى ، و مارس العدالة الاجتماعية و حض على العلم و تطور الإنسان ، و كرمه و فضله على

فضل الأيوبي

سائر المخلوقات ، و حمى حقوقه في الحياة، و المعرفة، و الاعتقاد، و الاختلاف، و الشورى، و المساواة^(٢٦) .

أما المصادر التراثية الأخرى فيمكن أن تقدم روافد للأصول و تتمثل هذه المصادر في العادات، و التقاليد، و الأعراف ، و سيرة الخلفاء و الصحابة و القادة العسكريين ، و الأحداث التاريخية ، و الموروثات الأدبية الشعرية منها و القصصية و ثقافات الأدياء و المفكرين عبر الفترات التاريخية المختلفة ، و كل ما تضمنته ثقافتنا الموروثة من ثقافات الشعوب و الحضارات عبر العصور و استطاعت تمثيله و تقديمه لنا و كل ما يمكن أن تقدمه اجتهادات المفكرين و العاملين في حقل الثقافة لإغناء الثقافة و تطويرها ، و جعلها قادرة على التصدي للغزو الثقافي و قيادة التنمية الوطنية و ضمان استمرارية نموها و قدرتها على المجابهة .

-

ما زالت ثقافتنا الموروثة سواء أكانت خليجية أم عربية بحاجة إلى تجديد نفسها ، و مطالبة بوضع قوالب جديدة و قواعد و أطر و أنظمة للفكر الحديث . و الخروج من المتاهات ، و امتلاك رؤية واضحة ، و ذلك أنها تحتاج إلى أسس جديدة للتفكير ، تحتاج إلى عقلية جديدة و منهجية حديثة لتعبر بصدق عن ضمير الأمة و وجدانها .

فهي على الرغم من التي هزت كياننا - من سقوط فلسطين إلى هزيمة حزيران ، إلى اتفاقيات كامب دافيد - إلى حرب الخليج ، إلى اتفاقيات وادي عربة - إلى الحرب الأهلية اللبنانية إلى اتفاقيات أوسلو إلى - التسوية و الاستسلام للعدو الإسرائيلي - لا زالت تغط في سبات عميق ، ولم تستطع هذه الكوارث جميعها أن تحرك كوامن هذه الثقافة لخلق رؤية لسلوك الطريق الصحيح إلى رفض التسوية و الاستسلام إلى المواجهة

()

()

والتصدي للتطبيع . إن الأمم الحية لا يظهر جوهرها إلا في الملمات والأوقات الصعبة . فالأمة العربية والإسلامية عرفت الكثير من المحن والأخطار والوقوع تحت نير الاحتلال : الصليبيون ، المغول و التتار ، الإنجليز ، و الفرنسيون ، والطيالان ، و الأتراك (بعد انقلاب الاتحاد و الترقى في عام ١٩٠٨م) . لكنها كانت في كل مرة تنهض بفضل هبة المثقفين و المبدعين و المفكرين الذين كانوا يستنهضون الأمة للدفاع عن الذات و حماية المقدسات : ابن تيمية ، العز بن عبد السلام ، الشيخ كامل القصاب ، خير الدين التونسي ، أحمد بشير الإبراهيمي ، عمر المختار ، الشيخ عز الدين القسام و يوسف العظمة ، و صلاح الدين الأيوبي و الظاهر بيبرس و عمر مكرم و غيرهم . و التي تكون بمثابة المفجر لطاقت المبدعين و المثقفين من أبنائها لا سيما و المجتمعات شرقا و غربا منذ أواخر القرن التاسع عشر و حتى الحرب العالمية الثانية كانت تخرج من أزمة لتدخل في أخرى ، و كانت الاضطرابات الاجتماعية و الحروب و المجاعات القواسم المشتركة لحياة المجتمع الروسي - مثلاً - و على الرغم من ذلك خرجت إبداعات تشايكوفسكي ، و غوغول ، و شولوخوف ، و تولستوي ، و ديسيتوفيسكي و غيرهم . و لم تنهوا أمام المواجهات و الهزائم^(٢٧) .

من الأسود يولد الأخضر ، و من الهزيمة يولد النصر ، و الأمم التي لا تقبل التحدي يكون مصيرها الذوبان و الفناء . لكن هذا التحدي رهين بالعطاءات الثقافية المبدعة و القدرة على الغوص في ماضي الأمة و تراثها و استخراج دررها الثمينة .

أما على صعيد — ذلك الحلم الذي ضحى من أجله الآباء و الأجداد ، و ما زال يراودنا صباح مساء و لا يختلف اثنان على أهميته و ضروريته ، و توفير كل العوامل لتحقيقه — فلا زالت ثقافة الوحدة مأزومة و مشتتة . لكننا لم نشهد ثقافة مناضلة و مصرة وملحة و مقاتلة لتحقيق هذا الهدف .

دور الثقافة في التنمية الاجتماعية في الخليج العربي

مهما ابتليت بمصائب فإنها تاج على رؤوسنا ، وروحنا التي لا نستغني عنها ووسيلتنا للخلاص . و واجبنا تطويرها من داخلها من عمقها ، بل من جذورها .

: أن الأصالة لا تعني الجمود، و لا تعني رفض الروافد الجديدة للثقافة العربية الإسلامية إننا نعيش في عالم معقد يتطور كل ثانية ، ومعرضون لخطر العولمة و الغزو الثقافي . و لا يمكن للثقافات المأزومة أن تصارع و تقاوم خطر زحف الثقافات الوافدة ، و أن تنشط في عملية التنمية و التطور . لذلك لابد من ثقافة جديدة قادرة على تجديد نفسها و تجديد بنيات مجتمعا اقتصادها .

:

- غياب الحريات العامة .
 - عدم تطور البنيات السياسية في الخليج و الوطن العربي .
 - غياب التوهج الفكري و المعرفي لتأسيس المجتمع المدني الذي يقود نفسه .
 - سعة قاعدة التخلف الاجتماعي .
 - التخلف الاقتصادي و عدم الاستطاعة في الدخول إلى عالم التقنيات .
 - تمزق القوى الثقافية و دخولها في صراعات هامية .
 - الدور الانتهازي لبعض الشرائح المثقفة .
 - الحاجة إلى المزيد من الأجواء المناسبة للعمل الثقافي .
 - هجرة قسم من المثقفين إلى الخارج .
 - امتلاء المؤسسات و المجالات الثقافية بأدعياء الثقافة و أنصاف المثقفين .
- هذه هي بعض المعوقات و الصعوبات التي تقف في وجه التجديد الثقافي ، و لكن أليست مواجهة هذه الصعوبات و التصدي لها تعد جزءا من عملية النهوض و خلق الثقافة

الجديدة ، و إن كان الثمن باهظا ؟! هل يمكن الحصول على النهضة بدون مقابل ؟! و هل التذكير بما دفعته الشعوب جميعا أمر ضروري ليشكل لنا حافزا على العمل ؟!

مثلما سبق و أوضحنا أن التجديد الثقافي لا يعني التغريب و إلغاء ثقافتنا الإسلامية و الارتهان لثقافة جديدة غازية ، و لكنه أيضا لا يعني الجمود و التحنيط و رفض كل تطور . المطلوب تفاعل ثقافي بين ثقافتين تعطي كل منهما للأخرى و تأخذ و اعيةً مختارةً و غير مكرهةٍ و لا واقعة تحت تأثير خاص ، مع الاحتفاظ بالهوية و الخصوصية و عدم التفريط بالقيم و المبادئ و المسلمات^(٢٩) .

العمل للتجديد مطلوب منا جميعا و بلا استثناء . و لكنه مطلوب أولا و بشكل رئيس من السادة العلماء و الباحثين و المتخصصين في شؤون الثقافة الإسلامية و الفكر الإسلامي . نحن بحاجة إلى دراسات و اجتهادات تبين لنا كيف نستطيع الملاءمة بين الأصالة و المعاصرة ، نريد أن نعرف مواقف حديثة لديننا من كل القضايا و كيف نعيش و نتعامل على ضوءها . نود من علمائنا الأفاضل أن يوضحوا لنا كيف نواجه العولمة و أخطارها لا أن يشرحوا لنا معناها و يبينوا أخطارها . التجديد المطلوب يجب أن يوضح لنا كيف نطور حياتنا المعاصرة دون أن نفرط بديننا و معتقداتنا . التجديد المطلوب يحتاج إلى الاجتهادات في غير الثوابت ، و يتطلب التفكير بروح العصر و بعقليته بدون خوف و لا تردد و لكن بدون تهور و اندفاع .

ألم نتفاعل مع ثقافات الأمم الحضارية في صدر الدولة الإسلامية من إغريقية إلى فارسية إلى هندية و صينية؟! ألم نتج حضارة جديدة دون أن ندوب أو نفقد خصوصيتنا؟؟ إننا بحاجة إلى روافد ثقافية جديدة ترفد ثقافتنا و تنوعها و تجعلها قادرة على التعامل مع مفاهيم القرن

دور الثقافة في التنمية الاجتماعية في الخليج العربي

الجديد ، فلولا رحلة جمال الدين الأفغاني إلى استامبول و لندن و باريس و ميونيخ و روسيا لم يقف على عيوب الحياة الإسلامية ، و قوة الإسلام و منعته^(٣٠).

إن التجديد المطلوب لا يمكن أن تقوم به تيارات الجمود و رفض الاجتهاد و التجديد و الانفتاح على العالم ، و لا تيارات الغلو و التنطع الذي يحجر ما وسع الله و يقوم على التعسير لا على التيسير ، و لا تيارات التهور و الاستعجال ، و لا تيارات الاستعلاء على المجتمع و الانسحاب من ميدان الإصلاح ، و لا تيارات التعصب الضيق^(٣١).

الثقافة الإسلامية تجمع لأن شقاء البشرية يكمن في انفصال وهي كما رأينا عالمية الأفق و الرسالة ، و تمتاز

الفاعلة في علاقة الإنسان بالكون و الحياة ، و هي تقوم على العقل و لا تنفيه^(٣٢) لهذا خرج المبدعون من رحمها من كل لون و عرق و لا داعي لتعداد مئات الأمثلة . لقد تعرض الكثير من الباحثين و خاصة في الشؤون الإسلامية لهذا الموضوع و لكنهم مع شديد الأسف ، و صفوه و لامسوه لكنهم لم يغوصوا إلى عمقه و لم يوضحوا لنا الطريق الواجب سلوكها ، و لم يستطيعوا أن يقدموا اجتهادات أو أفكارا حديثة من صميم تراثنا و من قلب ثقافتنا الإسلامية لمسائل مفصلية في حياتنا ، بل اكتفوا بالوصف و التحذير و التنبيه.

()
()
()

-

تراثنا هو العقلية التي فكرنا بها فيما مضى ، و أبدعنا إبداعاتنا المدهشة قبل الإسلام و بعده ، و قدمنا حضارة باقية إلى يومنا هذا . لكن ما يدهش هو تعاملنا مع هذا التراث على أنه ماض تاريخي لا أكثر و لا أقل نذكره للتدليل على غنانا الفكري و العقلي فيما مضى .

لقد آن الأوان لإعادة دراسة ملحمة جيلجا ميش ، و تشريعات حمورابي ، و علوم الفلك ، و الطب ، و الهندسة لدى سكان وادي النيل و الرافدين ، و آن الأوان لفهم عميق لعبقرية عمر - رضي اله عنه - و لإعادة قراءة رسالة الغفران و تحليل المعلقات و إبداعات بشار بن برد و المتنبي و فكر ابن تيمية وكلمات أبي ذر الغفاري و كتابات عبد الرحمن الكواكبي و جمال الدين الأفغاني و محمد عبده ، و عبد الله النديم و العز بن عبد السلام و غيرهم من الأفاضال الذين خدموا الفكر و المعرفة مثل : الخوارزمي ، و ابن خلدون و ابن الهيثم ، و ابن سينا ، و ابن حوقل و إخوان الصفا و الجاحظ ، و ابن رشد ، و ابن ماجه ، و ابن زهر الأندلسي .

إننا مدعوون لإعادة دراسة و تحليل هذا التراث ، و الكشف عن أسباب إبداعاته ، و الظروف التي أدت إلى تكوينه و النتائج التي يمكن أن نستخلصها منه و استخدامها في حل أزمئنا . و الكف عن التعامل معه على أساس أنه موروث تاريخي عفى عليه الزمن .

-

لم تكن الحضارة البشرية في يوم من الأيام إلا سلسلة من الحلقات المتواصلة ، وليست سوى لبنات توضع الواحدة فوق الأخرى طالما استمرت الحياة و حضارتنا الإسلامية لم تكن مقطوعة الصلة عن الحضارات الصينية ، و الهندية ، و الفارسية ، و الإغريقية . تعاملت معها ، و تلاقحت مع فحواها ، و أبدع المسلمون حضارة جديدة أضاءت على البشرية .

دور الثقافة في التنمية الاجتماعية في الخليج العربي

و اليوم و نحن بأمس الحاجة لتأجج الفكر و نهضته ما أحوجنا إلى العودة إلى الأعمال الإنسانية الكبرى و إعادة دراسة الإنتاج الفكري و التراث الإنساني للثقافات السابقة . ماذا يمنع من إعادة دراسة هيبوقراط ، و أفلاطون ، و اقليدس ، و سقراط ، و أرسطو طاليس ، و كانت ، و هيجل ، و مونتسكيو ، و جان جاك روسو ، و شبنغلر و توينبي و هيجو و فولتير و راسل و برنارد شو و شكسبير و تولستوي ، و غوغول و بوشكين و سارتر و ماركس و غاندي و غيرهم .

إذ ليس الهدف إعادة قراءة هذه الأعمال بقدر ما هو محاولة الوصول إلى رؤى جديدة ، و الكشف عن القواعد والأسس التي قامت عليها و محاولة فهمها فهما جديدا يسمح لنا بالتعامل معها لخدمة ثقافتنا الخاصة بنا^(٣٣) .

-

تكونت الأمة من مجتمعات بدوية و عشائرية و ريفية و حضرية ، و من أقليات عرقية و مذهبية و جميعها لديها الخصائص الفكرية و الثقافية الخاصة بها . هذا التنوع من المفروض أن يغني ثقافة الأمة ، لكن قبل ذلك علينا التساؤل لماذا بقيت الحدود و الخصوصيات قائمة بين هذه المكونات ؟ و لماذا لم تذب في كيان الأمة الواحدة ؟ و لماذا بقيت جرحا ينزف في كل حين ؟ و لماذا يبقى اندماجها ظاهريا ، و تتراجع أمام أول فرصة تسنح لها ؟ إن إعادة دراسة و تحليل الظروف التاريخية و السياسية و الاجتماعية و الجغرافية لتكوين الأمة مسألة في غاية الأهمية و لا بد من الكف عن التدليس و التبرير و التلفيق . يجب الكشف عن الحقائق و التعامل معها بكل احترام و جدية ؛ لأن ذلك ضرورة تحتمها الرغبة في توحيد نسيج الأمة و الذوبان في إطارها .

-

النقد هو حياة الأمة ، و هو المرآة التي نرى أنفسنا بها ، و هو الوسيلة التي تساعدنا على وضع النقاط على الحروف . يجب استحضار الحقائق مهما كانت مرة و وضعها أمام

فضل الأيوبي

الأجيال ، و تحليل أسبابها و نتائجها و عدم طمسها و تلفيقها و إيجاد المبررات لها . لقد انهزمت الأمة هزيمة منكورة في الخامس من حزيران . لم تظهر دراسة نقدية واحدة تحلل أسباب الهزيمة . لقد حولتها الأجهزة الإعلامية إلى انتصار . فقد كان هدف اسرائيل إسقاط الأنظمة التقدمية و لم تنجح في ذلك لذلك فشل عدوانها !!! على الرغم من أن أبواب عاصمتين عربيتين كانتا مفتوحتين أمامها .

-

إن الثقافة الهادفة إلى بناء حضارة عريقة لا يمكن أن تتجوهر و تغتني في حدود إقليمية ضيقة و في ظل تجزئة عاجزة ، الثقافة بحاجة إلى عمق و تنوع جغرافي و سكاني و ثقافي ، و مصدر يضخ أعدادا متزايدة من المفكرين و المثقفين . إن عالم اليوم هو عالم التكتلات الكبرى ، و الصغير يفقد وجوده بسهولة مطلقة . و الأمثلة أمامنا كثيرة . فلولا وحدة إقطاعات الصين ، و إمارات إيطاليا ، و ألمانيا ، و أجزاء اليابان لم تنل حظها في هذا النمو الباهر . و أوروبا بعظمة كل دولة من دولها لجأت إلى الوحدة للدفاع عن ذاتها و نيل رصيدها من العالم .

إذن الثقافة الرافعة ، أو الثقافة الجديدة المأمولة ، نريدها مشتقة بكل أصولها من القرآن و السنة و الفكر الإسلامي ، نريدها من تراثنا بل من قلب هذا التراث ، يبدعها عقل مفكر مستنير قادر على نقد الذات ، و الكشف عن الحقائق ، و التفاعل مع الثقافات الأخرى ، و عدم الخضوع للظروف الاستثنائية ، و تحصين نسيج الأمة و تحريضها للدفاع عن مقدساتها و عدم الخضوع للأمر الواقع ، و تحقيق التواصل ، و حشد الطاقات ، و تحديث الفكر ، و إيقاظ التراث من سباته ، و قادر على استيعاب التقنيات الحديثة بمكوناتها دون الخضوع لثقافاتنا .

دور الثقافة في التنمية الاجتماعية في الخليج العربي

فإذا ما استطاعت هذه الثقافة تنمية نفسها ، تمكنت من تحديث اقتصاد الأمة و مجتمعا ، و قادت المجتمع بتشكيلاته المختلفة إلى النمو و التطور .

:

إن فلسفة علم تنمية المجتمع تشكل جزءا من العلوم الاجتماعية و خاصة علم الاجتماع . غير أن علم تنمية المجتمع مازال في بداياته يغتني يوما بعد يوم بتجارب الشعوب المتقدمة أو السائرة في طريق النمو على حد سواء . و في البداية لابد من الإشارة إلى أن مصطلح مجتمع ليس سوى تعبير عن قوة التوازنات الثقافية و الفكرية و الاقتصادية و السياسية السائدة ، و لا يمكن أن يشهد هذا المجتمع أي تغيير ملموس إلا إذا حدث تغيير واضح في قوة هذه التوازنات . لذلك لن يكون للثقافة الرافعة ، الثقافة الجديدة التي تحدثنا عنها أية قيمة فعلية إذا لم تحرك المجتمع الساكن و تحدث تغييرا في أهدافه و مؤسساته و نظمه ، و ذلك من خلال الإخلال بتوازناته .

و قبل أن نسترسل في تحليل دور الثقافة في التنمية الاجتماعية لابد من استعراض التعاريف التي تلقي الضوء على هذا العلم الذي سيعطيه القرن القادم مكان الصدارة () .
((فالتنمية الاجتماعية هي عبارة عن جهد مخطط و منظم لمساعدة الأفراد على امتلاك المفاهيم و الخبرات و الأدوات المطلوبة لمشاركتهم الديمقراطية في إيجاد الحلول الفعالة لمشاكل المجتمع الذي يعيشون فيه وفق أولويات تحددها مستويات كفاءاتهم المتزايدة)) .

((و تنمية المجتمع هي عمل اجتماعي ينظم فيه أفراد المجتمع أنفسهم للتخطيط و العمل ، و يحددون احتياجاتهم و مشاكلهم الفردية و المشتركة ، و يضعون الخطط الفردية و الجماعية لتلبية احتياجاتهم و حل مشكلاتهم و ينفذون هذه الخطط بأقصى اعتماد على

()
C . Owen Paepke , *The Evolution of Progress : The End of Economic growth and the Beginning of Human Transformation* . 1995 .

فضل الأيوبي

الموارد المحلية ، و يدعمون هذه الموارد عند الضرورة بالخدمات و المؤسسات الحكومية و غير الحكومية)) .

و تعرف الأمم المتحدة تنمية المجتمع على النحو التالي :

((تنمية المجتمع هي العملية التي تتوحد فيها جهود الأشخاص أنفسهم مع جهود السلطات الحكومية لتحسين الظروف الاقتصادية و الاجتماعية و الثقافية في المجتمعات ، و لدمج هذه المجتمعات في حياة الأمة و تمكينها من المساهمة الكاملة في التقدم الوطني^(٣٥) . و المجتمع المحلي إذا هو الإطار الذي تحدث فيه تنمية المجتمع الذي تقوم أساساته على دمج التنظيم الاجتماعي و التنمية الاقتصادية . و يعني مفهوم التنظيم الاجتماعي الجمع بين العدالة الاجتماعية و التركيز القوي على العمل المحلي و أجهزته . و ترتبط فلسفة تنمية المجتمع بالتنمية الاقتصادية التي تحدد المراحل التي على الاقتصاد و المجتمعات أن تمر بها لكي تصل إلى الأهداف المنشودة . و هكذا فإن الترابط بين التنظيم الاجتماعي الذي يؤكد على العمل المحلي و الموارد المحلية ، و بين التنمية الاقتصادية التي تركز على التخطيط الوطني و التوزيع الواعي للمصادر ، و التحرك المنتظم نحو الأهداف ، يجب أن يكون كاملا .

و تستخدم تنمية المجتمع كوسيلة لتحقيق تغييرات اجتماعية عامة أو في أماكن يغلب عليها الطابع المتخلف أي إما في مناطق يغلب عليها الطابع الريفي و تتطلب تنمية عبر إقامة المشاريع الحيوية فيها أو في المناطق الحضرية و الصناعية و التي تحتاج إلى معالجة آثار التطور الصناعي فيها . و تنمية المجتمع يمكن أن تكون و ذلك عن طريق :
توسيع المشاركة الشعبية ، و خلق تجمعات جديدة ، و الوصول إلى أنماط جديدة لاتخاذ

دور الثقافة في التنمية الاجتماعية في الخليج العربي

القرار بشكل يغير النظم الاجتماعية القائمة ، و تسرع بخطا التغيير المخطط و اتخاذ القرارات الجماعية ، و توسع من أفق و اهتمامات و حرص المواطنين . و يمكن لهذه التنمية أن تكون محافظة أي أنها تعمل ضمن الأطر و القواعد و النظم المعمول بها . و لكن في كلتا الحالتين تعمل التنمية الاجتماعية بشكل مواز تماما و تكمل التطوير الاقتصادي و الزراعي و الصناعي و الاجتماعي لخطة التنمية الوطنية بل تشكل جزءا منها و ليس بديلا عنها . تهتم تنمية المجتمع إذا بسعادة الإنسان (أفرادا و جماعات) ، و نوعية حياتهم و إشباع رغباتهم و توفير الإحساس لهم بالأمن و تحريرهم من وطأة الحاجة . غير أن أساليب و طرق تحديد هذه الأهداف و الاحتياجات و كفيات الوصول إليها و ترجمتها إلى سياسات اجتماعية تمثل جوهر التنمية الاجتماعية التي يتصدى لها علم التنمية الاجتماعية الذي يركز على المفاهيم و الأسس التالية :

- ١- تحليل البيئة الاجتماعية بخصائصها و ثقافتها و مكوناتها و واقعها .
- ٢- استطلاع آراء الناس و توقعاتهم إزاء كافة المشاريع التنموية القائمة أو التي ستقوم و التي تتعلق بحياتهم و التي من المؤمل أن تحدث نقلة نوعية لمستقبلهم و مستقبل أبنائهم .
- ٣- لا بد من وجود نظرية ، و مؤسسات ، و إطارات ، و مفاهيم ، و قيم للعمل التنموي المحلي .

٤- ملاحظة الخصائص المشتركة للتنمية الاجتماعية و المتمثلة في أن :

التنمية المحلية للمجتمع هي علم سلوكي تطبيقي ، تركز حول مجموعة من القيم ذات طابع معياري و هي ذات اتجاه إنساني تفاعلي ، و ترغب في تحقيق أهداف اجتماعية و اقتصادية و تستخدم إستراتيجيات مدروسة أملتها الثقافة السائدة ، و تهتم بالوسط الإنساني العام ، و تركز على تدخل و مشاركة المجموعات المحلية الرسمية و الشعبية ، و

فضل الأيوبي

تستهدف توسيع قاعدة المشاركة ، و تهتم بشدة بتنمية المهارات الإنسانية الشخصية ، و مهارات التعامل بين الأشخاص . و تنظر إلى المجتمع كنسيج أو كنظام كلي متكامل . و أخيرا تولي اهتماما بالغا بالتغيير المستمر .

٥- يوفر العمل الجماعي المشترك دعما نفسيا ، و قوة مساندة و علاقة حميمة تدفع عمل الجماعات إلى الأمام ، و تضيف أهمية على عمل الأفراد و تخلصهم من حالات الخوف و القلق و عدم الاهتمام^(٣٦) .

و بما أن عمل تنمية المجتمع ذو شقين : نظري و عملي . إذا لابد أن يقوم هذا العمل على عاملين هامين هما : التحليل يقوم بالقراءة الدقيقة ، و التفسير الواعي و المنظم للنسيج الاجتماعي و وصفه بعد وضعه تحت المجهر ، و تبين جزئياته بعد إزاحة القشور و الزخارف التي تغطيه ، أما فيهتم بإعادة تشكيل هذا النسيج على أسس جديدة ، و وفق رؤى واعدة تتيح للمجتمع التطور و التغيير . لذلك نقول إن علم تنمية المجتمع ليس غنيا بدراساته النظرية و أسسه و مفاهيمه ، و إن غناه و تطوره منوطان بتطور الدراسات التطبيقية في الميدان .

و ينظر علماء الاجتماع و المهنيون العاملون في مجال التنمية الاجتماعية و المهتمون و القادة الوطنيون إلى تنمية المجتمع من خلال وجهات نظر أربع^(٣٧) :

-

تقوم وجهة النظر هذه على أساس أن تنمية المجتمع تسير على مراحل ، و تتطلب سلسلة من التغييرات ضمن مواصفات محدودة ، و هي تعبير علمي محايد خاضع لتحديد دقيق و قياسي و يعبر عنه بشكل رئيس في العلاقات الاجتماعية ، أي تغيير من حالة يشارك فيها عدد قليل من الناس في اتخاذ القرارات نيابة عن الآخرين إلى حالة تسمح

Edward J. Blakely: Community Development Research: Concepts , Issues , and Strategies

()

()

Lee J . Cary

()

دور الثقافة في التنمية الاجتماعية في الخليج العربي

للجميع بمناقشة و اتخاذ القرار . و تغيير من حالة تأتي فيها الموارد و الاختصاصيون من خارج المجتمع المحلي إلى حالة يستتبط فيها السكان المحليون مواردهم و طرق استخدامها من مجتمعهم .

-

ينظر إلى تنمية المجتمع على أنها وسيلة نحو غاية ، أي أنها طريقة عمل للوصول إلى هدف معين و ربما تكون أداة معينة لتنفيذ السياسات الوطنية التي ترسم على مستوى المركز بشأن التطوير الاقتصادي و الاجتماعي و الوطني . و هي فعلا كذلك .

-

لا بد أن تكون تنمية المجتمع قائمة على جهود منظمة و مبرمجة لتحسين ظروف حياة المجتمع و رفع قدرته على تحقيق التكامل الاجتماعي و التوجيه الذاتي . و يمكن اختصار هذه الجهود المنظمة في النقاط التالية :

١ - البرنامج المخطط .

٢ - تشجيع المساعدة الذاتية .

٣ - المساعدة الفنية التي قد تشمل المستخدمين و المعدات و المواد .

٤ - تكامل الاختصاصات المختلفة لمساعدة المجتمع .

و يؤكد تعريف للأمم المتحدة بشكل أوضح عمل تنمية المجتمع كبرنامج على النحو

التالي :^(٣٨)

إن برنامج تنمية المجتمع يعني الاستخدام الأمثل ضمن برنامج واحد للأساليب و طرق تعتمد على المجتمعات المحلية كوحدات عمل و التي تحاول الجمع بين المساعدات القادمة و الجهة المحلية المنظمة . و بالتالي تسعى إلى إثارة المبادرة و القيادة المحلية كأداة أساسية في التغيير ، و في الدول الزراعية بالمناطق الأقل نموا اقتصاديا فإن التركيز الرئيسي

فضل الأيوبي

هو على هذه النشاطات التي تستهدف تحسين مستوى المعيشة الأساسي للمجتمع بما في ذلك إرضاء احتياجاته غير المادية .

-

عندما تمارس تنمية المجتمع على نطاق واسع تصبح حركة لها قياداتها و مؤسساتها و برامجها ، و يصبح لها مؤيدوها ، و ذلك لأنها تتحول إلى قضية أخلاقية يلتزم بها جميع مؤيديها و بعمق شديد لأنها ذات طابع عاطفي ، و هي مكرسة للتقدم كرؤية فلسفية تقوم على معايير القيم و الأهداف التي تختلف حسب اختلاف الأنظمة السياسية و الاجتماعية . و تتجه تنمية المجتمع كحركة إلى أن تكون مؤسسية تستطيع خلق هيكلها التنظيمي الخاص بها ، و إجراءاتها المعترف بها و ممارستها المهنية .

-

تتناول التنمية الاجتماعية قائمة طويلة جدا بالمواضع الحساسة التي تهتم حياة المجتمع :

- ١- مراقبة الهجرات السكانية الداخلية و رصد حجم تياراتها و مصادرها .
- ٢- رصد الزيادات السكانية و توجهاتها .
- ٣- الانتباه إلى تيارات الهجرة الخارجية و القادمة للعمل و الحرص على عدم حدوث تخلخل سكاني .
- ٤- مراقبة ظاهرة النمو الحضري و التخطيط العمراني ، و الامتداد الحضري إلى الأرياف .
- ٥- العناية بالمناطق الريفية وإخراجها من عزلتها و دمجها بالنسيج الاجتماعي الوطني من خلال تطوير بنيتها المادية.

دور الثقافة في التنمية الاجتماعية في الخليج العربي

- ٦- تخفيف الضغوطات الناجمة عن الحياة في المدن ذات التصنيع العالي ،
و محاولة علاج الآثار الناجمة عن التصنيع مثل : التوسع على حساب الأراضي الزراعية ،
و الاستحواذ على المياه ، و استقطاب الأيدي العاملة الريفية و الضغط على المدن .
- ٧- التصدي لمشاكل تلوث البيئة و التخلص من النفايات و الفضلات .
- ٨- تحسين استغلال المجال الجغرافي و الموارد الطبيعية .
- ٩- العمل على تنمية الإنتاج الزراعي و الرعوي ، و معالجة معوقاته .
- ١٠- التدخل في مجال التخطيط العمراني من خلال توزيع المدارس و الشوارع
و المراكز الصحية و الاجتماعية و الخدمية و الحدائق و المساجد و دور العبادة و غيرها .
- ١١- التدخل على مستوى الأسرة لرفع مستواها المادي و تحسين معيشتها
و مساعدة أبنائها في توجهاتهم الدراسية و محاولة القضاء على المشاكل التي تعاني منها
و تكريس وحدتها و محاولة إيجاد أسرة إيجابية تخدم البناء الاجتماعي .
- ١٢- مراقبة التعليم من مراحل ما قبل المدرسة حتى مرحلة القضاء على الأمية
، و تقييم نتائج هذا التعليم من حيث تحقيق الأهداف على كافة المستويات الدراسية .
- ١٣- دراسة أوجه إنفاق عائدات النفط ، و التدخل في رسم سياسة وطنية
لاستغلال هذه الثروة تقوم على التأكيد على مدخلات و مخرجات صناعة هذه المادة
الاستراتيجية و جعلها وطنية ، و الإشراف على اقتصادات الثروة النفطية .
- ١٤- إيجاد وسائل إنتاجية بديلة عن النفط تحسبا للمفاجآت .
- ١٥- دعم و مساعدة النشاطات الحرفية و خاصة التقليدية منها ليس فقط إحياء
للتراث إنما لإعادة الاعتبار و القيمة لمفهوم العمل .
- ١٦- توسيع القاعدة الخاصة بتوفير فرص العمالة على مستوى القطاعين
الحكومي و الخاص .

فضل الأيوبي

- ١٧- تنشيط و تشجيع المؤسسات الثقافية الملتزمة بدراسة قضايا المجتمع و حل إشكالاته .
- ١٨- العمل على الحد من انتشار بعض الأمراض الاجتماعية : كالطلاق ، و تعاطي المسكرات و المخدرات و تطور الجريمة ، و التفكك الأسري .
- ١٩- توجيه عناية خاصة للتطوير الدائم لوضع المرأة و ادماجها في الحياة العامة و الاقتصادية للبلاد .
- ٢٠- مناقشة مشاريع البنى التحتية من مطارات و موانئ و طرق و جسور و سدود و غيرها ، و آثارها على المجتمعات المحلية .

-

- بعد أن استعرضنا بعض أوجه التدخل التي يمكن للتنمية الاجتماعية أن تقوم بها .
نتبين الآن بعضاً من الأدوات العديدة الهامة التي تحتاجها و التي أهمها :
- ١- موظفون و متطوعون تتوفر فيهم صفات القيادة و الثقافة و الحصافة و القدرة الاجتماعية على خلق العلاقات و اكتساب ثقة الناس ، و لديهم إمكانية تمثل أهداف التنمية الوطنية و نقلها إلى مؤسسات المجتمع المحلي و محاولة تطبيقها و بشكل غير رسمي بمساعدة الجماعات المحلية .
 - ٢- إيجاد مؤسسات و جمعيات محلية فعالة تتمتع بمستويات ثقافية تسمح لها بتنظيم و إدارة و توجيه العمل الجماعي و قيادته ، و لديها القدرة على استشفاف أهداف المجتمع و رغبات الناس و موافقهم و آرائهم و اتخاذ القرارات بمساعدتهم ، و تنفيذها بواسطتهم .
 - ٣- أكاديميون مثقفون يقومون بتطوير الممارسات اليومية للجماعات و القيادات المحلية و تحويلها إلى منطلقات نظرية و مفاهيم و قيم تساعد في تطوير أعمال تنمية المجتمع .
 - ٤- تخصيص الموارد المالية الكافية للقيام بالبحوث الميدانية ، و رصد توجهات و آراء و مفاهيم الناس و احتياجاتهم و شكل التنمية التي يرغبون بها ، و لتسهيل مهمة الجماعات

دور الثقافة في التنمية الاجتماعية في الخليج العربي

المحلية في مسح مجتمعاتها و تقييم متطلباتها ، و الدولة معنية بتغطية نفقات القسم الأعظم من هذه الموارد ولكن يمكن الاعتماد أيضا على التبرعات من الجماعات و الأفراد و أصحاب المصالح الكبرى ، و التجمعات السكانية المجاورة ، و ذلك في إطار الإقليم الواحد .

٥- توفير قاعدة معلومات غنية بالإحصاءات ، و الدراسات الأبحاث ، و التقارير تكون متاحة لكافة العاملين في خدمة المجتمع و تشمل هذه القاعدة معلومات عن كل الأقسام الإدارية .

٦- الاستعانة بالصحافة المحلية و مناقشة الآراء من خلالها بكل روح وطنية .

-

تتطلب تنمية المجتمع وجود عدد من الهياكل و الأنظمة الضابطة للعمل و التي تشكل أساسات ضرورية لا غنى عنها و تتمثل في :

(إن ضرورة التنمية المحلية تتطلب تقسيم البلاد إلى أقسام إدارية واضحة الحدود و المعالم و السكان ، تقسيما يقوم على أسس جغرافية دقيقة و ليس اعتباطيا . فأصغر الوحدات الإدارية هي و مجموع عدة قرى تشكل ، و عدة دوائر تشكل الوطن يتكون من أقاليم متباينة الخصائص . و متغايرة الاحتياجات . أما المدن فتقسم عادة إلى أحياء ، و هذه الأحياء في المدينة الواحدة مختلفة الخصائص أيضا و الاحتياجات : فحي خيطان غير السالمية ، و الصليبيخات غير النقرة و هكذا .

إن توضيح الأقسام الإدارية من أصغرها إلى أكبرها و وضعها في شبكة يسمح للعاملين في خدمة التنمية الاجتماعية أن يمارسوا عملهم بسهولة تامة .

(و تتمثل بمجالس الأحياء و المجالس البلدية و الإقليمية ، و مجالس المدن وغيرها . و لكن يمكن أن نضيف إلى هذه الجماعات المحلية الرسمية :

فضل الأيوبي

الجمعيات الخيرية ، و الجمعيات الشعبية الخاصة بحماية البيئة ، و حماية الأسرة و حماية الأحداث ، و حماية المستهلكين ، و حماية المدينة أو التجمع السكاني من الأوبئة و الأمراض و تأمين نظافته و مكافحة الأمية ، و تعليم المهارات اليدوية ، و تطوير الأرياف ، و حماية المزارعين ، إلخ .

(: و تهدف اللامركزية و هي مسألة هامة في التنمية الإقليمية إلى إعطاء الأقاليم حرية اتخاذ القرارات التنموية و تنفيذها و لكن تحت إشراف السلطة المركزية . و هذا دفعا للبيروقراطية و الروتين .

(:التخطيط الإقليمي هو أداة التنمية الحديثة و السريعة ، و التي تهدف إلى استغلال الموارد الوطنية الطبيعية و البشرية في الأقاليم بصورة مثلى ، و هذا ما يساعد التنمية الاجتماعية بسرعة الوصول إلى تحقيق أهدافها .

(- : تعترض التنمية الاجتماعية عوائق عدة نتناول بإيجاز أهمها :

١- عدم وجود خطط لتعزيز المساهمة الشعبية و تطويرها في التنمية المحلية الاقتصادية و الاجتماعية على مستوى البلديات و المدن و المحلات سيما و أن هذه المساهمات إن وجدت ستقدم للمجتمع كوادر و إطارات مؤهلة تشرف على عملية التنمية الشاملة من القاعدة إلى القمة . ولعله من غير المفيد أن يبقى الناس متفرجون على برامج و خطط تخصهم لكنهم لا يشتركون في وصفها و تنفيذها .

٢- اضطراب مشاريع التنمية من حيث مدى صلاحيتها أو طول مدة تنفيذها أو إلغائها .

٣- عدم وضوح الأهداف في تنمية المجتمع .

٤- غياب الأبحاث الميدانية التطبيقية في الميادين الاجتماعية و إهمال نتائجها إن

وجدت من قبل الدوائر ذات المستوى الأعلى .

٥- عدم تخصيص الموازنات المالية اللازمة .

٦- عدم وجود هيئات تنموية استشارية تفصل بين التنمية الوطنية و مشاريعها و

التنمية المحلية و مشاريعها .

تكونت ثقافة اللؤلؤ استنادا إلى كتاب الله و سيرة نبيه الكريم و السلف الصالح و من فيض كبير من الأعراف و العادات و التقاليد ، فبنت مجتمعا متماسكا ينتمي أبناؤه بوضوح ناصع إلى تلك الثقافة . و تبادلت التأثير مع الوجه الآخر لمجتمع الخليج و المتمثل بالوجه الاقتصادي الذي ارتكز على أهوال البحر و ثرائه و فقر الصحراء و جفافها . لقد لعبت ثقافة اللؤلؤ دورا مؤثرا في تمييز التكوين الاجتماعي و الاقتصادي للمجتمع الخليجي مستفيدة من غناها بتراثها العربي و الإسلامي و مرونتها و حيويتها و قدرتها على التلاؤم فاتصلت بثقافات الجوار و حضاراته من الصين إلى الهند مرورا بإيران و انتهاء بسواحل شرق أفريقيا ، فأخذت و أعطت و بقيت محافظة على خصائصها لم تتلاشى أمام الثقافات الأخرى ، و لم تبق صلبة جامدة عاتية على هضم كل جديد غير مخل بأركانها و مؤسساتها . و مثلما كان لثقافة اللؤلؤ بعدا إنسانيا (عالميا) . كانت لها أبعاد إقليمية و عربية و إسلامية فتأثرت بأعمال الأدباء و المفكرين و الصحفيين و استقبلت العديد منهم ، و تعاملت مع آثارهم الفكرية و الأدبية و تبنت قضايا الأمتين العربية و الإسلامية . و قد استطاعت هذه الثقافة الواعية المتفتحة أن تلعب دورا في تشكيل الهيئات و البنيات الاجتماعية التي قادت التطور الاجتماعي في منطقة الخليج و التي تمكنت بدورها من إغناء هذه الثقافة . و إذا كان ظهور النفط قد أدخل عوامل جديدة كانت شديدة الأثر على الثقافة التقليدية إل أن هذه الثقافة ما زالت في المكون الرئيس للشخصية الخليجية .

فضل الأيوبي

لعب النفط إذاً دوراً مهماً في ظهور ثقافة جديدة امتلكت مؤسسات وبنى مهمة جداً . لكنها في مجملها يصعب مقارنتها بثقافة اللؤلؤ من حيث التكوين و الخصائص و الوظائف و الآثار . فثقافة ما بعد النفط تغذت بسرعة من عائدات مالية ضخمة وشكلت بنيات متكلفة بادية التأثير بالثقافة الغربية لم تنجح في حشد الرأي العام خلفها للتصدي لردم الفجوة التقنية بين دول الخليج و الدول المصدرة للتقانة ، أو في إغناء مفاهيم الاستقلال السياسي و الاقتصادي ، أو في تحقيق الأمن بكافة صورته وأشكاله ، أو في مواجهة الغزو الثقافي و الفكري أو في تطوير تنمية اجتماعية مأمولة تستطيع قيادة المجتمع و تأمين احتياجاته من الأطر و الكوادر و المؤسسات و الأهم من ذلك الرؤى المستقبلية و المشروع النهضوي .

غير أنه لا ثقافة اللؤلؤ التي لم تعد تلعب الدور الحاسم في تكوين المؤسسات و الكوادر الاجتماعية و التي لا تمتلك أية مؤثرات على الهياكل الاقتصادية الجديدة – و لا ثقافة ما بعد النفط – المتأثرة بالمؤثرات الغربية التقنية و الفكرية بقيادة على توجيه المجتمع الخليجي إلى غاياته .

إن الحاجة تدعو إلى ثقافة جديدة مميزة تتصف بالأصالة و المعاصرة تستطيع إيجاد الأسرة الجديدة و المدرسة الحديثة و الجامعة القادرة ، و أجهزة الاعلام الرصينة المعبرة عن واقع و طموحات المجتمع و الأندية و النقابات و المجالس المحلية و كافة أشكال مؤسسات العمل الاجتماعي التي تتصدى للمخاطر و تساهم في ادماج متزايد للسكان في تنمية بيئتهم الاجتماعية و حسن استغلال مواردهم الاقتصادية .

فإذا كانت الثقافة الجديدة مرهون بها تطوير بنيات المجتمع الخليجي و إيجاد مجتمع صحي و نقي و متعاقد و قادر على التصدي للأخطار و تحقيق التنمية الاقتصادية ، فإن الوصول إلى هذا الهدف سوف يعزز الثقافة و مؤسساتها ، و إذا كانت هي الشعاع المسلط على المجتمع ، فإن هذا المجتمع ليس سوى انعكاس لها ؛ لأن التميميتين الاجتماعيتين و

دور الثقافة في التنمية الاجتماعية في الخليج العربي

الاقتصادية في آفاقها المستقبلية ترتكزان على التنمية المحلية التي لا يمكن لها أن تقوم دون عقول و ثقافات و كوادر و اطارات مشبعة تماما بروح الثقافة الوطنية القادرة و الساهرة على مصلحة الوطن و مجتمعة من خلال قراءة و تحليل احتياجات البلاد التنموية من أصغر وحدة إلى أكبر مؤسسة و العارفة بكيفيات التنفيذ و التطبيق على المستويين المحلي و الوطني .

إن الثقافة الجديدة و المطلوبة على ما أعتقد يجب أن تحمل هوية أبناء الخليج و شخصيتهم ، ماضيهم و حاضرهم و مستقبلهم و كل ما يميزهم عن غيرهم من الشعوب و هي أدوات تنميتهم الاجتماعية و الاقتصادية حيث تمد جذورها لتغذى من هذه التنمية .

فضل الأيوبي

The Role of Culture in the Social Development of the Arabian Gulf

Fadel Ayoubi

*Assistant Professor, Geography Department, Faculty of Arabic and Social Sciences,
Imam University, Al Qassi,
Saudi Arabia.*

(Received 1/1/1424; accepted for publication 28/9/1424 AH)

Abstract. Culture plays a principal role in establishing the national identity, in crystallizing the tracks of the social and economic development and in supporting the institutions associated with them. The more culture depends on originality and basic foundations, the more light it would throw on society to lead it towards openness and create reciprocal influence with other cultures without causing any changes in their characteristics. Only an original culture, one with humane dimensions, has the capability to create a civilization that leads the society to progress and development.

Culture in the Arabian Gulf, which derives its values and objectives from Qur'an and Sunna (prophet Mohammed's teachings), and from the rich heritage of customs and conventions has, in its course of development, passed through two stages. The first one is the "pearl" stage, referring to the economic base on which sea products such as pearls, sponge and fish are founded. This stage is marked by originality, by adopting the Arabic and Islamic issues, and by showing readiness for openness towards the Asian cultures. Such values have undoubtedly contributed to the emergence of special institutions, such as "family", "school", "journalism", "Andalusian Devans" and "education", and left clear finger prints on the social structure of the Gulf.

The second one is the "post-oil" stage. This stage is marked by being the crucial factor in the revolutionary development of society, economics, education, informatics and the sophisticated technology which developed under the concept "capitalism". To this one may also add the growth in population, in urbanites, and the various immigrations which attracted into the Gulf new cultures, cultures that are totally alien to their old culture of "pearl".

Today's post-oil culture - basing itself on its previous rich heritage and strongly founded pillars, and leading its society towards a new culture - a culture based on originality on the hand, and modernization on the other- is called upon for the emergence of a new social structure which can cope with the modern evolutions of the present world. The "pearl", the "post-oil" and the modern cultures are the three axes tackled in this paper.